مكية

سورة الأعراف

ترتيبها ٧

آياتها ٢٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓصٓ﴾

الله أعلم بمراده من هذه الحروف، مع الاعتقاد أنها لمعان جليلة ومقاصد جميلة.

(٢) ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا القرآن الكريم كتاب منزّل عليك من الله فلا تجد في صدرك ضيقًا من إبلاغه للناس، حتى ولو أُوذِيت وكُذِّبت، فالله يحفظك، وهذا الكتاب تخوّف به العاصين، وتبشر به الطائعين، وتذكر به المؤمنين؛ فوعيده لمن عصى، ووعده لمن اتقى، فالداعية لا يرده الأذى عن تبليغ الهدى.

(٣) ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

اتبعوا أيها المؤمنون ما أنزله الله إليكم من كتاب فيه النجاة والنجاح في الدنيا والآخرة، واتبعوا السنة النبوية المطهرة، فهي وحي من الله إلى رسوله ﷺ، واحذروا أن تتبعوا غير القرآن أنصارًا تتخذونهم من الطواغيت والشياطين وأعوانهم، فأنتم لا تتذكرون هذا الوحي إلا قليلاً، والغالب عليكم الغفلة والنسيان، والواجب دوام التذكر والاعتبار، وهو مذهب الأبرار.

(٤) ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾

ما أكثر القرى التي أهلكناها لما أعرضت عن الإيمان، فلما أردنا بها الهلاك أخذناها ليلاً وأهلها غارقون في نومهم، أو مستريحون في نصف النهار على حين غفلة وغرة، وجاءهم العذاب بغتة وفجأة بلا أهبة منهم ولا توبة ولا حسبان.

(٥) ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾

لم يكن لهم حيلة بعد أن وقع بهم العذاب إلا أن استغاثوا وقالوا: نعترف أننا أشركنا بالله وكذبنا رسله فهذا جزاؤنا، ووالله إن هذه زيادة في الحسرة والندامة والأسف في وقت لا ينفع فيه شيء من دون الله.

(٦) ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

فوالله لنسألن الأمم يوم القيامة ماذا كان جوابهم للرسل، ووالله لنسألن الرسل عما أجابهم أقوامهم، وهل بلغوهم الرسالة؟ والله يعلم ذلك، ولكن ليقرر كلاً بعمله؛ ويالهول هذا المشهد وفظاعة المقام.

(٧) ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾

فوالله لنخبرن الرسل بما أُجِيبوا وأقوامهم ماذا أجابوهم؛ لأن الله لا تخفى عليه خافية، فما غاب علمه عن أحد، بل له العلم الشامل المطلع الذي علم به السر وأخفى.

(٨) ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

وسوف توزن أعمال الناس حسناتهم وسيئاتهم بالعدل بلا ظلم ولا هضم، فمن رجحت حسناته على سيئاته فقد أفلح وفاز، وفوق الصراط اجتاز، فالتفضيل بالأعمال الصالحة هو أعظم الزاد.

﴿٩﴾ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

ومن خفت كفَّة ميزانه من الحسنات ورجحت بها السيئات فهم الذين خابوا في سعيهم، وضل عملهم، ومصيرهم إلى النار بسبب ظلمهم أنفسهم بالشرك، أو بكثرة المعاصي إن كانوا موحدين.

﴿١٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

أيها الناس، وطّأنا لكم الأرض فراشًا، وهيّأنا لكم فيها الطعام الهنيء و الشراب المريء والمركب الوطيء والمنظر البهي، مع صحة البدن واستقرار في وطن وأمن وسكن، لكن شكركم قليل، وأكثركم يجحد نعمة الجليل.

﴿١١﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

ولقد خلقنا أباكم آدم من طين، ثم صورناه بشرًا، ثم أمرنا الملائكة بالسجود له لفضله بالعلم، فسجدوا طاعةً لله وتكريمًا لآدم لا سجود عبادة، لكن إبليس أبى أن يسجد لما في نفسه من الكِبْر؛ فطُرد من الرحمة.

﴿١٢﴾ ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

قال الله لإبليس اللعين: ما الذي حملك على ترك السجود لآدم وأنا قد أمرتك وطاعة الله واجبة، فقال الطريد اللعين، أنا أفضل من آدم، وأصلي خير من أصله؛ لأن عنصر النار أشرف من عنصر الطين.

﴿١٣﴾ ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾

قال الله له: انزل من الجنة ذليلاً مهانًا واخرج منها فلا يجوز لك أن تتكبر في دار كرامتي وتأبى طاعتي، فما يستحق التكريم إلا من قابل الأمر بالتسليم.

﴿١٤﴾ ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

قال إبليس: أمهلني يا ربي ولا تقبض روحي ليوم البعث من القبور، وطلبه للبقاء زيادة في الشقاء؛ ليزداد إثمًا ويتكثر جُرما.

﴿١٥﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

فقال له الله: قد أمهلتك، لتتم فيه سنة الابتلاء، وليقوم الصراع بين الخير والشر والحق والباطل.

﴿١٦﴾ ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

قال إبليس: فبما أنك أغويتني، فأقسم لأعترضن لهم في كل طريق موصلة إليك، فأغوينهم عن الهداية وأدلهم على الغواية.

﴿١٧﴾ ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾

وقسمًا لأدخلن على العباد من كل جهة من جهاتهم الأربع، ومن مُرَاداتهم من شبهات وشهوات وغضب وغفلة ونحوها؛ ولأمنعن أكثرهم عن شكرك، وأحملنهم على الكفر بك وجحد نعمك.

﴿١٨﴾ ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

فقال الله لإبليس: اخرج من الجنة مذمومًا مطرودًا ذليلاً حقيرًا، وأقسم أن من أطاعك وعصاني لأحرمنّه رضواني، ولأصلينه نيراني، ولأذيقنّه هواني.

﴿١٩﴾ ﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وقلنا لآدم بعد إخراج إبليس: ابق أنت في الجنة وزوجك حواء منعمين بأنواع الطعام وأصناف الشراب، في قرة عين وبهجة قلب، وإياكما من أن تأكلا من هذه الشجرة في الجنة، فهي محرمة عليكما، فإن أكلتما منها فقد ظلمتما أنفسكما وعصيتما ربكما.

﴿٢٠﴾ ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾

فحسّن الشيطان لآدم وحواء الأكل من الشجرة المحرمة، وزيّن لهما هذه المعصية ليكشف بسبب الأكل ما سُتر من عورتهما؛ لأنهما لما أكلا سقط اللباس ووقع العري لشؤم المخالفة ولعقوبة الذنب، وغرهما اللعين بقوله: إن سبب تحريم الشجرة عليكما لئلا تكونا ملكين مقربين، أو لئلا تُخَلَّدا في الجنة فلا تموتا أبدا، وهذه خديعة منه ومكر بهما، فَصَدَّقاه بهذه الحيلة فوقعت بهما المصيبة.

﴿٢١﴾ ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

وحلف الشيطان لآدم وزوجه إنه ناصح ومؤتمن وحريص على ما فيه نفعهما. وكذب وافترى فهو العدو المبين.

﴿٢٢﴾ ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

فقادهما إلى الأكل من الشجرة بالخديعة والمكر، فلما أكلا بدت عوراتهما؛ فأخذا يقطفان من ورق شجر الجنة ويستران العورة، فيالها من عثرة أعقبتها حسرة، ومن زلة قدم أورثت الندم، وأمر الله مقدرٌ وقضاؤه نافذ: فنادى الله آدم وحواء: أما نهيتكما عن الأكل من الشجرة وأنا ربكما الذي خلق وأعلم بمصالحكما وأخبرتكما أن الشيطان ظاهر العداوة لكما، غاش في نصحه، فقد سبق النهي والتحذير ولكن لا حيلة في المقادير.

﴿٢٣﴾ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

فقال آدم وحواء بعد الخطيئة: يا ربنا ظلمنا أنفسنا بالأكل من الشجرة فخالفنا نهيك، وأطعنا الشيطان، فاغفر لنا ذنوبنا وإن لم تتداركنا برحمتك لنهلكن، وهذه سُنَّةٌ لكل مذنب ومن تاب تاب الله عليه، ولو لم تكن التوبة أحب شيء إليه ما ابْتَلَى بالذنب أعز الناس عليه.

﴿٢٤﴾ ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

فقال الله لآدم وحواء: انزلا من الجنة إلى الأرض وسوف يستمر العداء بينكم يا بني آدم لحكمة أرادها الله، فاستقرار سكناكم في الأرض ومتاعكم من الطعام والشراب واللباس فيها إلى وقت وفاتكم، فالآجال معلومة، والأرزاق مقسومة.

﴿٢٥﴾ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

في الأرض حياتكم،وفيها مماتكم، وبباطنها قبوركم، ومنها تخرجون للحساب، فالأرض أمكم حملاً ووضعًا ومعاشًا.

﴿٢٦﴾ ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يا بني آدم، قد هيأنا لكم لباسًا لأجسامكم يواري عوراتكم من القطن والوبر والصوف وغيرها، وريشًا للزينة والجمال، ولباس الإيمان والعمل الصالح أحسن من هذا اللباس؛ لأنه باق دائم، وكلا اللباسين علامات على القدرة وجزيل النعمة ووافر المنة وزيادة اللطف، عسى أن تذكروا فضل الله فتشكروه، وتعبدوه ولا تكفروه.

﴿٢٧﴾ ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يا بني آدم، احذروا أن يغويكم الشيطان كما أغوى آدم وحواء من قبل حتى أخرجهما من الجنة، فالعداوة مستمرة بينكم وبينه، وهو الذي كان السبب في خلع اللباس عنهما وظهور عوراتهما، والشيطان وأعوانه يرونكم ولا ترونهم؛ فاستتروا وتحفظوا واذكروا اسم الله، وقد قضينا أن الشياطين أنصار وأعوان للكافرين فلا يأمرونهم إلا بشر.

٢٨ ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وإذا عمل هؤلاء المشركون فاحشة كالطواف بالبيت عراة، وتقديم النذور للأوثان ونحو ذلك احتجوا على عملهم بأمرين، بأنه فعل الآباء فقلدوهم، وبأن الله أمرهم بتلك الفاحشة، فسكت عن تقليد الآباء؛ لأن الكلام صحيح، واعترض على كذبهم في أن الله ما أمرهم بها، وبيّن أن الله لا يأمر بهذه الفواحش - جل في علاه - فكيف تنسبون إلى الله ما لم يقل ويأمر به وأنتم لا تعلمون صحة هذا القول بدليل منقول ولا بتوجيه مقبول. وقد نزلت هذه الآية في طوافهم بالبيت عراة.

٢٩ ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

قل لهم أيها الرسول: إن ربي لم يأمر بالفحشاء وإنما أمر بالعدل والحق، واقصدوا الله إذا توجهتم في الصلاة، وأخلصوا له العبادة، كما أنشأكم من العدم يحييكم من الرمم ليحاسبكم على أعمالكم.

٣٠ ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

وأنتم قسمان: قسم وفقهم الله لطاعته واتباع رسوله ﷺ، وقسم أضلهم الله لسوء نياتهم؛ لأنهم جعلوا الشياطين أحبابهم وأنصارهم من دون الله، فأطاعوهم بمعصية الله، ولبَّسوا عليهم الأمر فظنوا أنهم على صواب وهم على ضلال مبين.

٣١ ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

يا بني آدم، استتروا باللباس عند العبادة من صلاة وطواف، وتناولوا الحلال الطيب من الطعام والشراب بلا مجاوزة للحد مع شكر المنعم، فإن الله لا يحب من يتجاوز الحد في كل شيء فَيُبَذِّر؛ فالقصد والعدل أساس كل خير.

٣٢ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قل للناس: من الذي حرّم الزينة والجمال إذا أباحه ذو الجلال من اللباس والجواهر، ومن الذي حرّم الطيبات من المأكولات والمشروبات، إن هذه النعم من الملبوس والمطعوم والمشروب أحق الناس بها المؤمنون، والكفار يتمتعون بها، فهي عون للمؤمن، ومتاع للكافر في الدنيا، وهي في الآخرة خالصة ومُخَصَّصَةٌ للمؤمنين فحسب، وبمثل هذا البيان في مسائل الزينة والأكل والشرب ونحوها نبيّن الأحكام، ونشرح تعاليم الإسلام؛ ليكون المسلم على بصيرة في كل شأن من شؤونه، وكانت المرأة في الجاهلية تطوف عريانه فنزلت: خذوا زينتكم.

٣٣ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قل للناس: الله لم يحرم الطيبات وإنما حرّم الذنوب الشنيعات؛ مما أسر العباد وأعلنوا، وأظهروا وأخفوا، وسائر الإثم كبيره وصغيره، والذنوب كلها، ومجاوزة الحد في كل شيء، والشرك بالله بلا حجة، بل بالزور والبهتان، وأن تنسبوا إلى الله أقوالاً ما قالها، وأحكامًا ما أمر بها، كالكذب في التحليل والتحريم، فالدين كامل، والشرع تام، والحجة قائمة، والابتداع محرم.

٣٤ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

لكل إنسان وجيل وأمة ودولة عمر محدّد ووقت معلوم، فإذا تم هذا العمر مات الإنسان، وانقرض الجيل، وفنيت الأمة، وسقطت الدولة، حكمة بالغة، وقدرة نافذة، وقضاء مبرم، لا يتأخرون عن ساعتهم ولا يتقدمون.

﴿٣٥﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾

يا بني آدم، إذا أتتكم رسل من الله يبينون لكم الدين فاتبعوهم واهتدوا بهداهم، فمن ترك ما نهوا عنه وعمل بما أمروا به فلا يخف مما أمامه من أهوال ولا يحزن على ما خلفه من أعمال أو تركه من أموال.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

والذين كذّبوا بآيات الله التي أنزلها في كتابه على رسوله ﷺ وأعرضوا عن قبولها كبرًا وعتوًّا فجزاء أولئك نار جهنم يمكثون فيها أبدًا؛ فالتكذيب رد وصد، والاستكبار إعراض، وجزاء كل النار.

﴿٣٧﴾ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾

ليس في العالم أحد أشد ظلمًا ممن افترى الكذب على الله، بأن حلل وحرّم من عنده ونسبه إلى الشرع، أو نسب الولد والصاحبة والشريك إلى الله، أو أنكر القرآن والسنة، أو جحد الرسالة، فهؤلاء لهم حظّهم المقدّر من القوت والعمر، حتى إذا أتتهم الملائكة لقبض أرواحهم قالت لهم: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله هل ينفعونكم الآن؟ قالوا: خذلونا فما ندري أين هم، وقد يئسنا من نصرهم وعونهم، والآن نعترف أننا كنا مشركين على ضلال، ولكن بعد فوات الأوان ووقوع الخسران.

﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾

قال الله للكفار: ادخلوا النار ضمن الأمم التي سبقتكم بالكفر سواء كانوا من الجن أو الإنس، فإذا دخلت جماعة من الكفار النار لعنت التي تقدمتها من الأمم؛ لأنها ضلت حينما اتبعتها، والتي سبقتها - أيضًا - لعنت من لحق بها، حتى إذا اجتمعوا جميعًا في النار وتلاحقوا فيها قالت أخراهم دخولاً - وهم الأتباع للأمم التي سبقتها-: يا ربنا هؤلاء هم الذين أغوونا عن صراطك المستقيم، وتسببوا في صرفنا عن هدايتك، فنسألك أن تضاعف لهم العذاب مثلين أو أكثر، فأخبرهم - سبحانه وتعالى - أن لكل منهم العذاب المضاعف، الأتْبَاع بسبب التقليد والقادة بسبب الإضلال، ولكن لا يعلم بعضهم مقدار هذا التضعيف وهذا العذاب وهذا النكال.

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾

وقال المتبوعون لتابعيهم: ليس لكم علينا مزية حتى يخفف عنكم العذاب، فقد ضللتم أنتم بأنفسكم كما ضللنا نحن، فهذا العذاب بسبب كسبكم، فلو كان عندكم عقول تفكرون بها لما اتبعتمونا في الضلال فذوقوا النكال.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾

الذين كذبوا بالقرآن الكريم والسنة المطهرة بما فيهما من الأحكام والأصول والفروع، التي بعث بها الرسول ﷺ وعتوا وتكبروا فلم يقبلوها لا يفتح الله لهم أبواب السماء إذا قُبضت أرواحهم، ولا يصعد لهم عمل طيب ولا سعي صالح ولا دعاء؛ لقبح سعيهم وخبث سرائرهم، ومستحيل عليهم دخول الجنة، كما يستحيل دخول الجمل بضخامته في ثقب الإبرة الضيق، وهذا العذاب جزاء ونكالاً للمجرمين الذين كفروا بالله وكذبوا برسوله ﷺ.

﴿٤١﴾ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

لهؤلاء الكفار فرش من النار من تحتهم، ومن فوقهم أغطية من النار، فالنار تشملهم من كل جهة، وهذا الجزاء يجزي به الله كل من ظلم نفسه أو ظلم غيره، ظلم نفسه بالكفر وظلم غيره بالإضلال والاعتداء، وهم المشركون.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أما المؤمنون بالله وبرسوله ﷺ الذين أخلصوا السعي لله وأحسنوا عبادة ربهم بقدر استطاعتهم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه على حسب الطاقة فأولئك لهم جنات يخلدون فيها وينعمون أبدًا، ويسرون سرمدًا، بسبب إيمانهم وعملهم الصالح.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وصفينا صدور المؤمنين في الجنة، فأخرجنا ما فيها من حسد وحقد كان في الدنيا حتى طهرت قلوبهم، وصفت نفوسهم، وزال كل كدر علق بها، ومن النعيم أن الأنهار تجري من تحتهم في مقام آمن وفي قرة عين وبهجة نفس، حينها شكروا الله - سبحانه وتعالى - الذي هداهم ووفقهم للعمل والإيمان بحيث أوصلهم إلى هذه المراتب العالية والمنازل الرفيعة، ولولا فضله - سبحانه وتعالى - ما اهتدوا بأنفسهم، لكن هو الموفق وحده، وهو الذي أرشدهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهم معترفون بأن الرسل جاءت بالحق فاتبعوهم، ومن زيادة النعيم أن الملائكة نادتهم بالأمن والإيمان، وقالوا لهم هذه الجنان دور لكم تخلدون فيها بسبب إيمانكم وعملكم الصالح؛ فادخلوا الجنة برحمة أرحم الراحمين، والنزول في المنازل بعمل العاملين.

﴿٤٤﴾ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ونادى أصحاب الجنة أهل النار بعد نزول كل فريق في منزلهم، المؤمنون في الجنة والكافرون في النار، فقال المؤمنون: نحن قد وجدنا ما وعد الله - سبحانه وتعالى - على ألسنة الرسل من النعيم المقيم والتكريم العظيم، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم بالنكال والعذاب والخزي؟ قالوا: نعم وجدنا ذلك حقًا؛ فلما اعترف الفريقان أهل النعيم بالنعيم، وأهل العذاب بالعذاب نادى منادٍ بين الفريقين: لعنة الله حقت على كل ظالم كفر بالله وكذب رسله - عليهم الصلاة والسلام - لتزداد الحسرة، ويعمَّ الندم بأهل النار.

﴿٤٥﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾

الذين يعترضون طريق الناس فيردونهم عن أبواب الهداية، ويسعون في أن يكون الصراط معوجًا غير مستقيم، وهم يظنون أو يزعمون أنها خطأ وباطل ولُبّس عليهم أنهم على الهدى، وغيرهم على الضلال، وهم يكفرون بيوم البعث والنشور؛ فهم جاحدون للكتاب؛ مكذبون للرسل، كافرون بالله.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

بين أهل الجنة وأهل النار حاجز عليه سور، وفوق السور رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم، وهم يميزون أهل الجنة من أهل النار، فأهل الجنة عليهم سيما النور والبياض والنعيم، وأهل النار عليهم سيما النكال والعذاب والسواد، فنادى هؤلاء الرجال أهل الجنة أن تحية لكم وتكريمًا وقرة عين وطوبى، وهؤلاء الرجال وهم أهل الأعراف يطمعون في دخول الجنة لما رأوا من نعيم أهلها وقرة عينهم وراحتهم وأمنهم فبدؤوا يطمعون في فضل ربهم.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وإذا اتجهت أنظار أهل الأعراف إلى أهل النار ورأوا ما فيها من نكال وعذاب شديد وخزي مقيم استغاثوا بربهم وسألوا الله ألا يجعلهم مع هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك بل ينجيهم سبحانه.

﴿٤٨﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾

ونادى أصحاب الأعراف رجالاً في النار يميزونهم بعلامات واضحة ويعرفونهم في الدنيا فقالوا لهم: أين ما جمعتموه من أموال؟ ما نفعتكم في هذا الموقف العظيم ولا نفعكم اجتماعكم لمحاربة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ولا نفعكم إعراضكم عن دين الله واستكباركم في الأرض.

﴿٤٩﴾ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾

وقال أهل الأعراف للكفار في النار: انظروا إلى هؤلاء المستضعفين الذين آمنوا بمحمد ﷺ كيف دخلوا الجنة، فأين إيمانكم وقسمكم في الدنيا أن رحمة الله لا تنالهم؟ وأن فضل الله لا يدركهم؟ انظروا إليهم الآن وقد قيل لهم: هيا ادخلوا جنات النعيم لا تخافون مما ينتظركم، ولا تحزنون على ما فاتكم أو ما أصابكم في الدنيا.

﴿٥٠﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

وطلب أهل النار من أهل الجنة أن يشركوهم في شيء من النعيم من الماء البارد أو الطعام الطيب أو الظلال الوارفة، فردّ عليهم أهل الجنة: إنّ الله منعكم من ذلك، وحرم ذلك عليكم بسبب كفركم، فليس لكم حق في الماء ولا في الطعام ولا في الظل ولا في النعيم، إنما حقكم العذاب واللعنة.

﴿٥١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾

وهؤلاء الكفار المستحقون للنار هم الذين جعلوا دينهم سخرية واستهزاء ومخادعة ومحاربة للمؤمنين، واغتروا بالدنيا وزخرفها وزينتها، فهذا اليوم نتركهم في العذاب كما تركوا طريق الصواب، وبسبب كفرهم بآيات الله وجحدهم وتكذيبهم لرسوله ينالون النكال والعذاب المقيم في الجحيم.

﴿٥٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾

ولقد جئنا هؤلاء الكفار بكتاب، وأنزلناه عليهم فيه كل خير وصدق وحق كما أنه دليل واضح وبرهان صادق وحجة قاطعة، وهو يدل الناس إلى كل فضيلة، ويحذرهم من كل رذيلة، ويدعوهم إلى الهدى، ويحذرهم من الردى، وهو رحمة مهداة، ونعمة مسداة، وعصمة لمن اتبعه، ونجاة لمن آمن به، وفلاح لمن عمل به.

﴿٥٣﴾ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

هل ينتظر هؤلاء الجاحدون المكذبون إلا أن يأتي العذاب الذي يؤول إليه أمرهم، ويوم ينزل بهم العقاب الشديد والعذاب الأليم حينها يظهر لهم صدق الأنبياء وكذبهم هم، ويقولون في حسرة وفي ندم: لقد أتتنا الرسل بالحق فهل هناك أحد ينجينا من هذا العذاب والنكال لنعود إلى الدنيا، لنصدق الكتاب ونتبع الرسول ونعمل خيرًا ونجتنب المعاصي؟ لقد غُبّنا في عملنا، وخسرنا أنفسنا، وضيّعنا حياتنا، فالويل لنا. حينها يذهب عنهم كل ما كانوا يعتقدون نفعه من الأصنام والأوثان ويتلاشى باطلهم ويُمحق كذبهم وزورهم.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

إن الذي رباكم بالنعم وصرف عنكم النقم وتولى أمركم وصرّف شؤونكم هو الله وحده، فهو وحده المستحق للعبادة، وهو وحده الإله بحق، فإنه أنشأ السموات والأرض وأبدعهما في عظمة، وكان هذا الإبداع والإنشاء في ستة أيام، وبعد ذلك استوى - سبحانه - وعلا واستقر وارتفع على العرش استواء يليق بجلاله، وهو - سبحانه وتعالى -

الذي جعل الليل غشاءً للنهار كالغطاء عليه، والليل يطلب النهار، ويجري وراءه ويغشاه في حركة دائبة، وسرعة مستمرة لا فتور فيها ولا تأخر ولا انقطاع، والشمس والقمر والنجوم مذللات مسيرات مسخرات بأمر الله وقدرته - جل في علاه - فالله الخالق - سبحانه وتعالى - فهو الذي برأ وأنشأ وأبدع وصوّر، وله الأمر كالتصرف، ومن أمره - سبحانه وتعالى - كلامه القرآن الذي ليس بمخلوق، فسبحان من هذا صنعه وجل من هذا أمره، وتقدس من هذا إبداعه، اتسع فضله فعمّ كل مخلوق، وعزَّ سلطانه فقهر كل ضد، وعظم جبروته فتفرد في الكمال وتنزّه في ملكوته، فتوحد بالجلال والجمال لا إله إلا هو.

٥٥ ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

إذا دعوتم ربكم فادعوه بذلة وخشوع ومسكنة في السر والخفاء؛ بعيدًا عن الضجيج وعن الرياء والسمعة، فإن إخفاء الدعاء دليل على الإخلاص والإيمان والتجرد؛ وهو أجمع للقلب؛ وأسكن للنفس، وأبعد عن حسد الحاسد وعن التشويش؛ ولا تتجاوزوا الحد في الدعاء برفع الصوت أو الدعاء بما لا يجوز من الإثم وقطيعة الرحم ونحو ذلك.

٥٦ ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

لا تفسدوا في الأرض بالكفر بعد أن أصلحها الله بالإيمان الذي أتى به الرسل ونزلت به الكتب، وادعوا الله - سبحانه وتعالى - وأنتم خائفون من عذابه، طامعون في ثوابه، فرحمته وعفوه وكرمه قريب ممن أحسن عمله، وأخلص نيته، واتبع الرسول ﷺ، واهتدى بالقرآن؛ فعلى العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، في الشدة والرخاء، وأن يخلص لربه العبادة والدعاء.

٥٧ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

الله وحده هو الذي يرسل الرياح التي تحمل الخير من الغيث المدرار، والرزق الهنيء، والماء الزلال، حتى إذا حملت الرياح سحابًا مثقلاً بالماء ساق الله - سبحانه وتعالى - هذا السحاب إلى أراضي القحط والجدب؛ فأنزل عليها الماء، وبإذنه ومشيئته تخرج بهذا الماء أنواع الثمار ومختلف الأشجار وبديع الأزهار؛ فكما أخرج بهذا الماء النباتات وأنواع الثمرات، فإن الله يخرج الموتى من القبور للبعث والنشور، لعلكم تذكرون بهذه الصورة ذاك المشهد وقدرة الله على البعث، وتقيسون هذا بالنظر والاعتبار والتدبر والاستبصار، فجلَّ الحكيم في خلقه، القدير في حكمته وأمره.

٥٨ ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

والمكان طيب التربة الخصب القابل للنماء يخرج نباته- بإذن الله- حسنًا تامًا جميلاً رائعًا، والذي خبث ترابه وفسدت تربته كالأرض السبخة والمالحة لا يخرج النبات منه إلا عسرًا بمشقة، وهو لا جمال فيه ولا نضرة ولا نماء، وهذا المثل مثل قلوب المؤمنين التي قبلت هدى الله واتبعت رسوله ﷺ وأفادت من الحكمة، وانتفعت بالذكر، ومثل الذين أعرضوا عن الهدى وهم الكفار ولم يقبلوا الرسالة ولم يؤمنوا بالنور الذي بعث به محمد ﷺ، فالله - سبحانه وتعالى - يبين الحجج والدلائل، ويضرب الأمثال، ويقص القصص، لقوم يريدون الاستفادة والانتفاع لعلهم يشكرون الله على نعمه ويثنون بها عليه ويخافونه ويرجونه.

٥٩ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

لقد أرسلنا أول الرسل نوحًا - عليه الصلاة والسلام - إلى قومه بالتوحيد؛ فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الإشراك به، فليس لهم إله غيره، مثلما أنه ليس لهم خالق سواه - جل في علاه - فالذي خلق أولى أن يُعبد، والذي رزق ودبر وصرّف أولى أن يُوحد، ثم أنذرهم عذاب القيامة والخزي في ذاك المشهد إذا لم يؤمنوا بالله ولم يوحدوه، وهذا هو النصح في الدعوة.

﴿٦٠﴾ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

قال أشراف قومه ورؤساء أمته: يا نوح إنّا نشاهدك في خطأ بيّن، وفي غلط واضح، وفي انحراف عن الحق، وهذا لسفههم هم، ولضلالهم الذي ارتكبوه.

﴿٦١﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فرد عليهم وقال: يا قوم، إنني على هدى، وإن عندي رسالة من ربي، وإن الله اختارني لإنذاركم ولنصحكم، ولست ضالاً بعد أن وفقني ربي لعبادته وطاعته؛ فإنه رب العالمين الذي ربانا بنعمه وخلقنا ورزقنا.

﴿٦٢﴾ ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

ومهمتي أن أبلغكم وأنصح لكم وأبين لكم آيات الله - عز وجل - وأهديكم السبيل وأحذركم من الشرك ومن عبادة الطاغوت، وعندي علم من علم الغيب الذي أوحاه الله إليّ - سبحانه وتعالى - أنتم لا تعلمونه؛ لأن الله اختصني بذلك من أخبار الآخرة، وأخبار المستقبل والغيبيات.

﴿٦٣﴾ ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

هل استبعدتم أن أتاكم وحي من الله وآيات بينات تهديكم إلى سواء السبيل، ونزلت هذه على بشر منكم مهمته أن ينذركم من عذابه الشديد والعقاب الأليم إذا لم تهتدوا، ولعلكم إذا اتبعتم هذا الوحي أن تتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فإذا فعلتم ذلك رحمكم الله رحمة عامة وخاصة، ورضي عنكم وغفر ذنوبكم.

﴿٦٤﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴾

ولكنهم كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله نوحًا، فنجاه الله والذين معه من المؤمنين في السفينة، وأما الكافرون من قومه فإن الله أرسل عليهم الطوفان؛ لأنهم كذبوا بآيات الرحمن، وعصوا الديان، وكانوا عُمْي البصائر، وانطمست قلوبهم وانحرفت فطرهم عن الحق وعن سماع النصح.

﴿٦٥﴾ ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

والله - سبحانه وتعالى - أرسل إلى قوم عاد النبي هود عليه السلام، وهو من أنفسهم، فقال لهم قول الأنبياء المشهور: يا قوم، وحِّدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فلا إله إلا هو - سبحانه - ولا يستحق العبادة إلا هو، أفلا تخافون لقاءه وترجون ثوابه وتعملون بأوامره وتجتنبون نواهيه؟ هل هناك خالق غير الله؟ فمن يستحق العبادة إلا هو - جل في علاه -؟.

﴿٦٦﴾ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فرد عليه الأشراف والزعماء من قومه الذين كذبوا بآيات الله وجحدوا رسالته، قالوا: ياهود، نراك في طيش وحمق وسفه، هذا في عقلك، وأما في نقلك فنظنك من الذين كَذَبوا وافتروا، فلا عقل عندك مكين، ولا نقل متين، وهذا من افترائهم قاتلهم الله.

﴿٦٧﴾ ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فرد عليهم هود وقال: يا قومي: إن عقلي صحيح، وإن ذهني ثابت، وإن الله أرسلني برسالة إليكم، فقد جمعت بين العقل والنقل، وليس بي طيش ولا حمق ولا قلة عقل، فإن الله - سبحانه وتعالى - ألهمني رشدي، ووفقني لطاعته، واجتناب معصيته.

﴿٦٨﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾

ومهمتي أن أبلغكم ما أوحاه الله إليّ من الحكمة وأن أرشدكم إلى ما فيه خيركم في الدنيا والآخرة، فأنا ناصح مخلص لكم النصيحة، وأمين فيما أنقل، فما غششتكم ولا خنتكم ولا كذبت عليكم.

﴿٦٩﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

هل استبعدتم أن أتاكم وحي من الله - سبحانه وتعالى - الذي رباكم بنعمه وخلقكم ودبّركم بواسطة بشر من أنفسكم ليخوفكم لقاء الله ويحذركم من عذابه وغضبه، وتذكروا أن الله استخلفكم بعدما أهلك قوم نوح لما كَذَّبوا، والله - سبحانه وتعالى - قوَّى أجسامكم وبسط لكم في صوركم من الجمال وطول الأجسام والنضارة والمتاع الحسن، فتذكروا نعم الله واشكروه عليها، وشكره بتوحيده وعبادته واتباع رسوله؛ فإنكم إن فعلتم ذلك فزتم في الدنيا والآخرة، وأدركتم الظفر، ونجوتم من الخسران.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

فقال الكفار من قومه: يا هود أنت أتيتنا بكلام مُخْتَلَق من عندك لنعبد إلهًا واحدًا فحسب، ونترك ما كان عليه آباؤنا من عبادة الآلهة، وهم أعقل منا وأرشد وأدرى، ونترك تقاليد أجدادنا وآبائنا، فإن كنت صادقًا فنتحداك، تعال بما تهددنا به وعجل بالعذاب الذي تزعم أنه سيحل بنا؛ استبعادًا وتكذيبًا وعتوًا وتمرّدا.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾

قال: قد حلَّ بكم عذابٌ شديد من الله -عز وجل- وغضب منه ماحق ساحق، لا رضوان بعده، أأنتم تحاجوني في آلهة سميتموها أسماء لا حقيقة لها، فهي مجرد أسماء على مسميات، وهذه المسميات لا تنفع ولا تضر ولا تحيي ولا تميت، أين ذهبت عقولكم؟ أين غابت بصائركم؟ أين الحجة لكم من عند الله -عز وجل- أن هذه الآلهة تُعبد وأنها تُوحد؟ ولكن انتظروا نزول العذاب الشديد عليكم بما فعلتم فإني منتظر ما وعدني ربي من تعذيبكم إذا لم تؤمنوا ولم تهتدوا.

﴿٧٢﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾

فأنزل الله عذابه بالكفار وأنجى الله هودًا والذين آمنوا معه برحمته - سبحانه وتعالى - لهم ولطفه بهم وأباد الله الكفار وأهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحدًا وما كانوا مؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر بل كانوا كفرة مكذبين جاحدين بآيات الله.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۘ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وأرسل الله - سبحانه وتعالى - إلى قوم ثمود النبيَّ الكريم صالحًا - عليه الصلاة السلام - فنصح قومه ودعاهم إلى الله -عز وجل- وحده وعدم الإشراك به، وأخبرهم أنه لا إله إلا الله ولا رب سواه، وقال لهم: قد أتتكم حجةٌ واضحة من ربكم - جل في علاه - وهذه الحجة الظاهرة، هي ناقة خلقها الله وأخرجها من الصخرة؛ لتكون لهم علامة على صدق صالح وأنه نبي من عند الله، قال: «فاتركوا هذه الناقة ولا تتعرضوا لها بسوء» وهذا من الابتلاء، ودعوها تأكل من رزق الله في أرض الله وهي من خلق الله، ولا تنالوها بشيء من الأذى، فإن فعلتم ذلك فإن الله سوف يأخذكم بعذاب مؤلم ويزلزلكم بعقاب شديد، وهذا الذي حدث.

٧٤ ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

وتذكروا يا قومي فضل الله عليكم في أنه جعلكم تخلفون قوم عاد في الأرض فكانوا عبرة لكم، وقد أنزلكم من الأرض منازل رحبة وسيعة، فأما سهولها فتبنون فيها الدور الواسعة والقصور الشاهقة، وأما جبالها فتصنعون منها وتصورون وتنحتون بيوتًا تدفئكم من البرد وتظلكم من الحر، فتذكروا هذه النعم الجليلة والأيادي الجزيلة، ولا تكثروا الفساد في الأرض، فإن من فعل ذلك فقد باء بالخسران، ومن أعظم الفساد الإشراك برب العباد.

٧٥ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

قال هؤلاء الرؤساء المتجبرون المنحرفون عن الإيمان للذين آمنوا من قوم صالح: هل تشهدون أن صالحًا قد أرسله الله -عز وجل- إلينا؟! وهذا منهم على سبيل الاستهزاء، فرد المستضعفون، وقالوا: نعم صَدَّقْنا برسالة صالح، وأنه نبي من عند الله، ونحن نتبع أوامر الله، ونجتنب نواهيه ونطيع رسوله.

٧٦ ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

فقال هؤلاء الرؤساء الجبابرة الذين تكبروا على رسول الله: لقد كفرنا بما آمنتم به أيها الضعفاء من رسالة صالح وأعرضنا عن ذلك.

٧٧ ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

فقتل هؤلاء الجبابرة الناقة، ونسب الله القتل إليهم جميعًا؛ لأنهم رضوا بذلك وشاركوا بالفعل، أو بالرضا، والسكوت، وتجبروا على أمر الله وتكبروا على نبيه، واستهزؤوا بدينه وتحدوا صالحًا وقالوا: إن كنت صادقًا فأين العذاب الذي وعدتنا به؟ وأين العقاب الذي هَدَّدتنا به؟ فإن كنت صادقًا بأن الله أرسلك فهيَّا عجل لنا العذاب.

٧٨ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

فأرسل الله عليهم زلزالاً شديداً رجف بهم ودمرهم وأهلكهم وأبادهم، وأزهق أرواحهم، فصاروا ميتين لا حراك فيهم، جثثًا هامدة لا حياة فيها.

٧٩ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

فأعرض عنهم صالح وخرج من ديارهم بعدما عقروا الناقة وقال: لقد نصحت لكم، وقد أخبرتكم برسالة الله، وقد أمرتكم بالمعروف ونهيتكم عن المنكر، وقد بينت لكم شرع الله ولكنكم لا تهتدون بنصح ناصح ولا تسترشدون برأي عاقل، فأنتم أبيتم نصحي وتركتم إرشادي فحق عليكم العذاب.

٨٠ ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

وكذلك أرسلنا لوطًا - عليه الصلاة والسلام - إلى قومه فنصحهم ونهاهم عن فاحشة اللواط، وأخبرهم أنهم هم السابقون إلى هذه الجريمة الشنعاء، وأن الأمم الذين قبلهم لم يفعلوا هذه الفعلة، بل هم الذين ابتدعوها وأتوا بها واقترفوها ولم يسبقهم أحد إليها.

٨١ ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

وأخبرهم أنهم بفعلهم هذا وهم يأتون الرجال بمجرد الشهوة لا بمقتضى العقل والشرع والفطرة ويتركون النساء الحلال اللواتي هن محل الشهوة بالشرع والعقل والفطرة، فهم متجاوزون لحدود الله، غارقون في العصيان، خارجون عن الطاعة.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾

فلما وبّخهم لوط على عملهم الأثيم قالوا: أخرجوا لوطًا ومن آمن معه من قريتكم (واسمها سدوم) فهم ناس أطهار نزهاء شرفاء، وهذا القول منهم للسخرية والاستهزاء والعناد.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

فأنجينا لوطًا وأهله من العذاب الشديد والعقاب الأليم الذي حل بقومه، وأبقينا امرأته لعصيانها وتمردها على زوجها، وبقيت مع الهالكين المعذبين.

﴿٨٤﴾ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

فأمطر الله عليهم مطرًا من الحجارة المحماة المتواصلة الشديدة الغليظة فمزقهم وأهلكهم، فتأمل كيف عاقبة من ارتكب المعاصي والآثام، واستهان بالفواحش العظام.

﴿٨٥﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وأرسل الله إلى قوم مدين النبي شعيبًا، وهو منهم ومن أنفسهم، ونادى قومه لعبادة الله وحده وإلى توحيده وعدم الإشراك به، وأخبرهم أنه لا يستحق العبادة إلا الله، وأنه قد أتته حجة من الله قاطعة، وبرهان ساطع على صحة ما يدعو إليه، وأمرهم بأن يُوَفُّوا الكيل والميزان عند البيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ لأنهم كانوا يطففون المكاييل، ويبخسون الموازين، ونهاهم عن عدم نقصان الناس حقوقهم في البيوع والمعاملات والأخذ والعطاء، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بالمعاصي والظلم والجور بعد أن أصلحها الله بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وأن هذا المنهج السديد والمذهب الرشيد الذي دعاهم إليه هو لإصلاحهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة إن كانوا مصدقين له ومتبعين لرسالته.

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

ولا تكونوا قطاع طرق تقفون على كل سبيل تَرُدُّون من أتى إلى شعيب للإيمان، ومن أقبل للهداية، وتعترضون طريق الناس وتهددونهم وتتوعدونهم بالنكال إذا وحّدوا ذا الجلال، وتريدون أن يتحول الطريق المستقيم إلى طريق ملتوٍ منحرف بأفعالكم المشينة، وزوركم وكذبكم، وتذكروا أن الله - سبحانه وتعالى - قد كثركم بالنسل بعدما كنتم قليلين، وأمدكم بالقوة بعدما كنتم ضعفاء، وبالغنى بعدما كنتم فقراء، ثم اعتبروا بمن أُهلك قبلكم من الأمم كيف أن الله - سبحانه وتعالى - محقهم وسحقهم ومزقهم بسبب كفرهم وإشراكهم بالله وأعمالهم القبيحة.

﴿٨٧﴾ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

وإذا كان جماعة منكم آمنوا بما أُرسلت به وصدقوني واتبعوني، وجماعة كذبوني فعلينا أن نصبر وننتظر جميعًا، أما المصدقون فلينتظروا النصر والفصل من الله بيننا وبين الكافرين، وأما المكذبون فلينتظروا العذاب الأليم على فعلهم الأثيم، فإن الله سوف يحكم بيننا وهو خير الحاكمين، فحكمه حق وعدل وجد وفصل، لا يحابي ولا يهضم ولا يظلم - جل في علاه -.

٨٨ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾

فقال الزعماء من شعب مدين الذين كذبوا وعاندوا الحق ورفضوا الرسالة: يا شعيب إما أن تترك رسالتك وإلا لنخرجنك أنت ومن معك ممن صدقك أو لترجعن في ملتنا وتتركون ما تدعون إليه من الملة، فقال شعيب: أو تفعلون ذلك ولو كنا كارهين لملتكم أو كارهين الخروج من ديارنا.

٨٩ ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

قد اختلقنا على الله كذبًا وادعينا على الله زورًا وبهتانًا إن رجعنا إلى الشرك الأثيم والضلال العظيم الذي أنتم عليه بعد أن خلَّصنا الله - سبحانه وتعالى - من هذا الزور والبهتان، والشرك بالرحمن، وكيف لنا أن نعود إلى الضلالة بعد أن أكرمنا الله بالرسالة؟! لا يمكن أن نختار الردى على الهدى، ولا الغيّ على الرشد بعد أن وفقنا الله - عز وجل - لطريقه المستقيم وصراطه القويم إلا أن يشاء الله - سبحانه وتعالى - شيئًا فهو الحاكم لما أراد، القاضي بما شاء، لا إله إلا هو، فإنه - سبحانه وتعالى - المطلع على كل شيء، العالم بكل دقيق وجليل، المحيط بكل سر وعلانية؛ فعليه اعتمدنا، وأمرنا إليه فوضنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل؛ فنسألك يا ربنا أن تحكم بيننا وبين قومنا المكذبين الضالين، فتثيبنا على إيماننا بك، وتصديقنا برسولك، وتعاقبهم على كفرهم وتكذيبهم، فأنت خير من حكم وأعدل من فصل.

٩٠ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

وقال أشراف الكفار لأتباعهم: لو أطعتم شعيبًا فيما أمركم به من الوفاء بالكيل والوزن لخسرتم تجارتكم؛ ولو اتبعتموه فيما دعاكم إليه من الإيمان بالله لوقعتم في الهلاك؛ على حد زعمهم؛ جهلاً منهم وكذبًا.

٩١ ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

فأنزل الله عليهم الزلزلة الشديدة بسبب كفرهم، فأصبحوا موتى خامدين في منازلهم.

٩٢ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

الذين عصوا شعيبًا وردّوا ما جاءهم به كأنهم بعدما أهلكهم الله لم يقيموا ويعيشوا ويعمروا وينعموا؛ فهم هالكون، وفقدوا كل ما يملكون، وهم في الآخرة معذبون.

٩٣ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

فأعرض شعيب عنهم وقال لهم: لقد أنذرتكم العذاب، وخوفتكم العقاب، وبلغتكم الرسالة، واجتهدت في نصحكم؛ فلن أحزن عليكم، ولن أتأسف على ما أصابكم، فأنتم تستحقون العقوبة لكفركم. والله لا يظلم عباده.

٩٤ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

لم نرسل رسولاً في مدينة من المدن إلا ويُعْرِض أهلها فنبتليهم بالفقر والمصائب والأمراض والكوارث ليتوبوا وينيبوا ويتذلّلوا لربهم ويؤمنوا به.

٩٥ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

ثم وهبناهم غنىً بعد فقر، وصحة بعد سقم، وقوة بعد ضعف، حتى كثروا وزاد عددهم، فكفروا وما شكروا، وجحدوا وما آمنوا، وقالوا: هذه سنة الحياة وعادة الدهر، يوم لك ويوم عليك، ولم يتعظوا، وغفلوا عن أن هذه ابتلاءات من

الله بالخير والشر، والشدة والرخاء، فلما فعلوا ذلك فاجأناهم بالعذاب وباغتناهم بالعقاب دون سابق إنذار، فما شعروا بمجيئه حتى أُخذوا على غرّة ودمّروا على غفلة.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

ولو أنَّ أهل القرى آمنوا بالله ورسله وكتبه واتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، لأغدق الله عليهم الرزق بإنزال الغيث المدرار المبارك، وأنبت لهم من الأرض أنواع النباتات بمختلف الثمرات، ولكنهم كذبوا الرسل وعصوا ربهم، فعاقبهم الله بذنوبهم وعذبهم بكفرهم؛ فالطاعات سبب للخيرات، والمخالفات سبب للعقوبات.

﴿٩٧﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾

هل عند أهل القرى أمان بأن لا يأتيهم عذاب الله وهم نائمون بالليل وقد كفروا بربهم وكذبوا رسله.

﴿٩٨﴾ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾

أم هل عندهم أمان أن لا يأتيهم العذاب وهم غافلون في لهوهم ضحى النهار، غارقون في دنياهم.

﴿٩٩﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

أم هل أمنوا استدراج الله لهم من حيث لا يحتسبون، وتدبيره هلاكهم من حيث لا يدرون، فلا يأمن أخذ الله على غرة وعقابه فجأة إلا من خسر نفسه، وفقد رشده، وضل عمله وبطل سعيه.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

ألم يتبيّن ويظهر للذين جاؤوا بعد من أهلكهم الله، وخلفوهم أن الله قادر على أن يهلكهم بمعاصيهم كما أهلك الذين من قبلهم، وإذا داوموا على الإعراض أقفلنا قلوبهم فلا تتعظ ولا تعي ولا تفهم ولا تسمع سماع قبول واستجابة.

﴿١٠١﴾ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

تلك القرى التي أهلكناها وأخبرناكم كيف عاقبناهم بذنوبهم ليحصل الاعتبار، ولقد أرسل الله لهم الرسل بالمعجزات الظاهرة، والأدلة الباهرة، فما كان لهم أن يؤمنوا بعد مجيء المعجزات، وقد كذبوا من قبلها بالرسالات، ومثلما طبع الله على قلوب من كفر من الماضين يطبع على قلوب الكافرين اللاحقين، سُنَّة ماضية وجزاء عادل؛ لكفرهم بالله ورسالاته.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾

وما وجدنا عند كثير من الناس وفاء بعهد ولا إيمانًا بوعد، ولا شكرًا لنعمة ولا عملاً بوصية، بل وجدنا أكثرهم خارجين عن الطاعة كافرين بالله، جاحدين للنعمة، مكذبين بالرسالة، فالمؤمن قليل والتقي نادر.

﴿١٠٣﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

ثم أرسلنا بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب - عليهم الصلاة والسلام - موسى بالمعجزات الظاهرة والبراهين الباهرة كالعصا واليد إلى فرعون العنيد وأشراف قومه؛ فجحدوا المعجزات وكذبوا الآيات، وأفسدوا في الأرض، فتأمل ماذا كانت نهايتهم، في الدنيا الإغراق وفي الآخرة الإحراق.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

وقال موسى لفرعون: إن الله أرسلني ولم آت من تلقاء نفسي، وهو رب العالمين لا أنت أيها العبد الفقير، فأثبت لربه الجلالة، ولنفسه الرسالة، ولفرعون الضلالة.

﴿١٠٥﴾ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

ألا أفتري على الله ولا أكذب على ربي، بل آتي بالحق، وأخبر بالصدق، وعندي معجزة ظاهرة كاليد والعصا، وهي من الله الذي خلقكم ورزقكم لا منيٍّ، فاترك يا فرعون بني إسرائيل يخرجوا من مصر وأعتقهم من استعبادك، وأطلقهم من استبدادك.

﴿١٠٦﴾ ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

قال فرعون لموسى: إن كان معك معجزة من ربك فأظهرها لنا حتى نراها، إن كنت صادقًا أنك مرسل من ربك.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾

فطرح موسى العصا من يده فحوّلها الله حية عظيمة داهيةً مخيفة، ظاهرة الحياة وبينة الخلقة.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾

وأخرج موسى يده من جيب ثوبه، فإذا هي بيضاء تلمع، بها نور يسطع، من غير برص ولا بهق، ولا مرض ظاهر لمن نظر إليها، بيّنة لمن شاهدها لا تخفى على أحد.

﴿١٠٩﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾

قال زعماء قوم فرعون: إن موسى ساحر متمكن من السحر، عالم بأساليبه، خبير بمسالكه.

﴿١١٠﴾ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

يريد موسى بسحره أن يخرجكم من أرض مصر ويمكث هو فيها، قال فرعون: فَبِمَ تنصحونني به أيها الأشراف؟

﴿١١١﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾

قال الأشراف لفرعون: أمهل موسى وأخاه هارون ولا تعاجلهم بالعقوبة، وأرسل في كل مدن مصر من يجمع الناس ويسوقهم حشدًا إليك ليشاهدوا الاجتماع.

﴿١١٢﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾

يحضروا لك كل ساحر ماهر متقن لفنون السحر عالم بأسراره.

﴿١١٣﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾

فقال السحرة لفرعون: هل تكافئنا بأُجْرة إذا هزمنا موسى وأبطلنا سحره.

﴿١١٤﴾ ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾

فقال فرعون للسحرة: نعم لكم الأجرة وقرب المنزلة، يعني المال والحظوة.

﴿١١٥﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾

فقال السحرة لموسى: هل تريد أن تبدأ بإلقاء عصاك أو نبدأ نحن بإلقاء ما عندنا.

﴿١١٦﴾ ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾

قال موسى: ألقوا أنتم، فألقوا الحبال والعصي، وصرفوا أبصار من حضر بالتمويه والخديعة والمكر، وأوقعوا في القلوب الرعب الشديد والخوف الأكيد، وأتوا بسحر رهيب في عيون الناس، أذهل الحضور وأدهش الحاضرين.

﴿١١٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾

فأمرنا موسى بإلقاء العصا فألقاها، فابتلعت حبالهم وعصيهم التي خدعوا الناس بها، وزوّروها في عيون الحاضرين.

﴿١١٨﴾ ﴿ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

فظهر الحق مع موسى وظهر باطل سحرة فرعون.

﴿١١٩﴾ ﴿ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴾

فانهزم سحرة فرعون في مكان اجتماع الناس، ورجعوا مغلوبين أذلاء فاشلين.

﴿١٢٠﴾ ﴿ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾

وخرّ السحرة لله ساجدين، ونصر الله رسوله الأمين، وأبطل كيد فرعون اللعين، وإنما بدؤوا بالسجود؛ لأنه أشرف حال للعبد مع خالقه.

﴿١٢١﴾ ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قال السحرة: آمنا بالله وحده لا شريك له، فهو الذي خلق العالم لا أنت يا فرعون، فمن أوجد أحق أن يُعبد.

﴿١٢٢﴾ ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾

والله - وحده - هو الذي خلق موسى وهارون، فالسجود لله لا لهما.

﴿١٢٣﴾ ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾

قال فرعون للسحرة: كيف تصدقون موسى ولم آذن لكم؟ هذه حيلة وخديعة منكم لتخرجوا الناس من مصر، فسوف تعلمون ما أوقعه بكم من العذاب، وأليم العقاب، والطاغوت إذا عجز عن الحجة لجأ إلى التهديد.

﴿١٢٤﴾ ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾

سوف أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى من كل واحد منكم تشويهًا وتعذيبًا، ثم أصلب الواحد على جذع نخلة حتى يموت؛ ليكون عبرة لمن بعده.

﴿١٢٥﴾ ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

قال السحرة له: سوف نعود ونجتمع وإياك عند ملك الملوك - سبحانه - في يوم العرض الأكبر ليجزي كلاً بما فعل.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴾

وما عبت علينا إلا أن وحّدنا الله بالعبادة وصدقنا بموسى والمعجزات التي أتى بها، يا ربنا صُبَّ علينا صبرًا كثيرًا يعيننا على تعذيب هذا الطاغية، فبالإيمان والصبر يُدرك النصر، ونسألك يا رب أن تثبتنا على دينك حتى نموت عليه غير مفتونين ولا منحرفين.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾

وقال رؤساء الكفر لفرعون: أتترك موسى ومن آمن معه أحياء ليصدوا الناس عن عبادتهم لك، ويغيّروا عقائد الناس، ويتركوك وما تعبد من دون إلههم؟ قال فرعون: سوف نذبح أولادهم ونترك بناتهم للخدمة، ونحن متسلطون مسيطرون عليهم لا يعجزوننا.

﴿١٢٨﴾ ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

فقال موسى لما سمع التهديد لقومه: استعينوا بالله، واصبروا في الثبات على دينه وأذى عدوه، فالأرض ليست لفرعون، إنما هي لله وحده، يمكِّن عباده الصالحين من سكناها، وهي واسعة لمن هاجر من الأذى، والخاتمة الجميلة دائمًا والنهاية المحمودة أبدًا لأولياء الله الصادقين وحزبه المفلحين والدائرة على أعدائه الكافرين.

﴿١٢٩﴾ ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

فقال بنو إسرائيل لموسى: نحن أوذينا من فرعون وجنده من قبل أن تُبعث إلينا رسولاً ومن بعد رسالتك، وكثر علينا العذاب، وضاقت بنا الحيل، فقال لهم موسى: نرجو الله أن يدمر عدوكم فرعون وأعوانه، ويمكّن لكم في الأرض ويجعل الأمر بأيديكم ليمتحنكم، فيرى من يصبر حال البلاء ومن يشكر حال الرخاء؛ لأن لله عبودية في العسر واليسر.

﴿١٣٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

ولقد عاقب الله آل فرعون بجدب الديار، وقلة الأمطار، مع نقص الثمار بالعاهات، وقلة الحبوب بالآفات، وإتلاف الغلات، لعلهم يخافون ربهم ويتوبون من ذنوبهم، فالعقوبات سياط يُحِسُّ بها من فيه حياة، أما أموات القلوب فما لجرح بميت إيلام.

﴿١٣١﴾ ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

فإذا أتتهم الخيرات من ثمار ونبات، ونعمة وغلات، قالوا: نحن نستحق هذا وبجهدنا حصل، وإذا أصابتهم المصائب ووقعت بهم النوائب تشاءموا بموسى ومن معه، وشؤمهم إنما هو مكتوب عليهم ومقدر؛ لأن الله هو الذي قدّر لهم الخير والشر، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن كل شيء من النعم والنقم بقضاء مبرم، وقدر محكم.

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال أتباع فرعون لموسى: مهما جئتنا به من معجزات تصرفنا بها عن ديننا وتخدعنا عن ملتنا فنحن ثابتون على ما نحن عليه، ولن نصدقك، وهذا ثبات أهل الباطل على باطلهم فأهل الحق أولى.

﴿١٣٣﴾ ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

فسلطنا على قوم فرعون المطر الجارف المدمر المتلف، والجراد الذي أهلك الزروع والثمار، والقمل الذي آذى الأجسام، والضفادع التي ملأت المساكن وأزعجت كل ساكن، والدم الذي أفسد المياه، ونغص عليهم الحياة، وهذه عقوبات ظاهرة تدل على قدرة الله وعظيم سلطانه، ولكنهم تجبروا وتكبروا ولم يتوبوا وينيبوا؛ لأن الإجرام متمكن منهم، والخبث صفة لازمة لهم.

﴿١٣٤﴾ ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

ولما أخذ الله قوم فرعون بالعذاب، قالوا يا موسى: ادع الله بما اختصك به من النبوة والحظوة أن يرفع عنا العذاب، ونعاهدك أنه إذا حصل ذلك أن نصدقك ونتبعك ونطلق معك بني إسرائيل من الإقامة الجبرية بمصر؛ ليذهبوا معك إلى حيث شئت، وهذه من وعود العصاة في الشدائد.

﴿١٣٥﴾ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

فلما رفع الله عنهم العذاب مدة من الزمان إلى وقت إهلاكهم بالغرق إذا بهم يخونون العهد، وينقضون العقد، ويعودون إلى التكذيب والصد.

﴿١٣٦﴾ ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

فلما نقضوا العهد وخالفوا الأمر، انتقمنا منهم، فأغرقناهم في البحر؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأعرضوا عن المعجزات وغفلوا عن العظات.

﴿١٣٧﴾ ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

وأورثنا بني إسرائيل المستضعفين المقهورين أرض مصر والشام التي وضعنا فيها البركة بكثرة المياه وجودة الثمار والأشجار، وتم وعد الله لبني إسرائيل بنجاتهم وإهلاك فرعون وجنده وتوريثهم الأرض، لصبرهم على النوائب وتحملهم المصائب، وأهلك الله فرعون وقومه وما كانوا يشيدون من البيوت والقصور، ويعمرون من المساكن والدروع، وكانوا يبنون من عرائش الأعناب والأشجار؛ فسلبهم الله البناء والحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء.

﴿١٣٨﴾ ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

وسهّلنا لهم اجتياز بحر السويس بسلام، فمروا بعبدة أصنام، فقالوا: يا موسى نريد أن تكون لنا آلهة كهؤلاء الأقوام، فقال لهم موسى: إنكم جاهلون بما يجب لله من توحيده بالألوهية وإفراده بالعبودية وعدم الإشراك به.

﴿١٣٩﴾ ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

إن عبدة الأصنام هؤلاء عبادتهم خاسرة، وعملهم باطل، وسعيهم مردود عليهم، فعمل المشرك كله زائل.

﴿١٤٠﴾ ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هل أطلب لكم إلهًا غير الله تعبدونه؟ أم هل يستحق الطاعة أحد سوى الله توحدونه؟ وهو الذي فضلكم على عالمي زمانكم فحقه أن يُعبد وحده.

﴿١٤١﴾ ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

وتذكروا يوم حماكم من بطش فرعون وقومه بعد أن أذاقوكم أصناف العذاب، وأنواع العقاب، يذبحون الذكور من الأبناء، ويُبقون النساء للخدمة، وفي الإنجاء ابتلاء، وفي حمايتكم من هذه الأضرار امتحان واختبار؛ لتشكروه على النعم، وتذكروه بما أنجاكم من النقم.

﴿١٤٢﴾ ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

وواعدنا موسى قبل تكليمنا إياه ثلاثين ليلة يتعبد فيها ثم زدناه عشر ليالٍ فصارت أربعين ليلة، وأوصى موسى أخاه هارون لما ذهب للتكليم أن يكون خليفته على بني إسرائيل، وأن يقوم على شؤونهم بالعدل والرفق والإصلاح، ولا يطاوعهم في المعاصي، أو يعاونهم على الظلم، أو يسكت على منكرهم.

﴿١٤٣﴾ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

ولما أتى موسى على الموعد وكلمه الله مباشرة طمع موسى في الفضل؛ فطلب من الله أن يريه وجهه الكريم، فأخبر - سبحانه - أنه لن يراه؛ لأنه لا يُرى في الدنيا - سبحانه - وإنما يراه المؤمنون في الآخرة، وأمر موسى أن ينظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف يرى موسى ربه، وإن اندك الجبل وتفتت لتجلِّي الله له فمن باب أولى ألا يستطيع موسى رؤية الله لعظمته - سبحانه - فلما تجلى الله للجبل تفتت الجبل وانبث على وجه الأرض، فلما رأى موسى هذا المشهد المهول خرَّ مغشيًا عليه، فلما أفاق من غيبوبته، قال: أنزهك يا رب عما لا يليق بك من سؤال رؤيتك في الدنيا، وأنا أول مصدق بك من قومي، إنك رب العالمين وإله الأولين والآخرين.

﴿١٤٤﴾ ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

قال الله: يا موسى إني اخترتك على سائر الناس بالرسالة، وأكرمتك بمكالمتي لك، فاقبل هذه النعم قبول شاكر، ولا تطلب سواها مما لا يجمل طلبه؛ كرؤية الله، فعندك نعم جليلة وأياد جزيلة.

﴿١٤٥﴾ ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

وكتبنا لموسى في التوراة كل شيء من الترغيب والترهيب والأحكام، فاقبلها - يا موسى - بجد وعزيمة وعمل وأوصِ بني إسرائيل أن يأخذوا بأفضل ما فيها عند الاختيار كالعفو بدل العقوبة، وكظم الغيظ بدل التشفي، وإنظار المعسر بدل التعجل بأخذ الحق، سأظهر لكم مصارع الظلمة وديار الكفر لتعتبروا بما ترون، وتتعظوا بما تشاهدون.

﴿١٤٦﴾ ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾

سأحجب الفهم في الآيات والفقه في نصوص الوحي عن كل متكبر، ومهما يرون من آية ويطالعون من دليل يدل على عظمة الله وقدرته وحكمته فإنهم لا يصدقون أبدًا، وإذا شاهدوا طريق الهدى والرشد يعرضون عنه ولا يتخذونه طريقًا لهم، وإذا شاهدوا طريق الغواية والضلالة يسلكونه ويجعلونه طريقًا لهم، وذلك الحجب عن الفهم والصرف عن الاهتداء لتكذيبهم بالآيات وإعراضهم عن المعجزات وغفلتهم عن تدبر العظات.

﴿١٤٧﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

والذين كذبوا بالآيات التي بُعث بها الرسل وكذبوا باليوم الآخر، أبطل الله ما عملوه من حسنات كإكرام الضيف ونصر المظلوم وبر الوالدين ونحوها، ولا يعاقبون إلا على ما فعلوه من جرم وارتكبوه من إثم.

﴿١٤٨﴾ ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾

ولما ذهب موسى إلى الطور للمناجاة، صوّر بنو إسرائيل من الحلي جسمًا على هيئة العجل له خوار إذا دخلت في جوفه الريح، وهو تمثال جماد صامت لا يكلمهم ولا يستطيع إرشادهم إلى الخير، وجعلوه إلهًا لهم، وهم بذلك ظالمون لأنفسهم بهذا الشرك العظيم.

﴿١٤٩﴾ ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

ولما عبدوا هذا الصنم، وزلت بهم القدم، وقعوا في الندم، وتيقنوا أنهم أخطؤوا عادوا تائبين يقولون: إذا لم يتجاوز الله عنا ويسامحنا فيما فعلنا ويمحُ ذنوبنا لنكونن من الهالكين؛ فسُوءُ عملنا يُوجِبُ عظيم العقاب من ربنا.

﴿١٥٠﴾ ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولما عاد موسى من المناجاة إلى قومه غضبان عليهم، حزينًا لفعلهم في عبادة العجل، قال لهم: بئس ما فعلتم من عبادتكم للعجل حين غيابي عنكم!! هل استعجلتم أمر ربكم وميعاده الذي وعدني وهو أربعون يومًا فلم تنتظروا عودتي إليكم، فلمَّا لم أعد عبدتم غير الله؟ وأمسك بشعر رأس هارون يسحبه ويعاتبه على لينه مع بني إسرائيل، فقال هارون: يا أخي من أمي ترفق بي واحلم عليَّ، فإن بني إسرائيل وجدوني وحيدًا ضعيفًا فأرادوا قتلي فلا تُفرِحهم بإهانتي، فلست مشاركًا لهم في عبادة العجل، فلم أرض فعلهم وقد أنكرته عليهم وأنا بريء منهم.

﴿١٥١﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

فقال موسى: يا ربي اغفر لي فعلي بأخي، واغفر لأخي تقصيره مع قومي، وتغمدنا برحمتك الواسعة وحلمك الكثير، فأنت أرحم الرحماء، وأكرم من تجاوز عمن أساء، فرحمتك ملأت الأرض والسماء.

﴿١٥٢﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾

إن الذين عبدوا العجل من دون الله سيصب الله عليهم غضبه وعذابه وأليم عقابه في الآخرة، وسوف تلحقهم المهانة والذلة والحقارة في الحياة الدنيا، ومثل هذا الجزاء جزاء كل كاذب على الله بعبادة غيره والإشراك معه سواه، ووصفه بما لا يجوز - سبحانه - ونسبة ما لا يحل له تعالى.

﴿١٥٣﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ومن ارتكب المعاصي واقترف الذنوب ثم تاب، تاب الله عليه، مع إيمان صادق بالله ورسله وكتبه، فالله من بعد هذه التوبة يغفر لهم ذنوبهم، ويرحمهم برحمته الواسعة؛ لأنه كثير الغفران رحيم رحمن.

﴿١٥٤﴾ ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴾

ولما زال عن موسى الغضب أخذ ألواح الكتب التي رمى بها وهو غضبان، وفيها إرشاد وموعظة وأحكام مفصلة وبشرى ورحمة واسعة لمن خاف ربه وخشي مولاه، وخاف إلهه.

﴿١٥٥﴾ ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾

واصطفى موسى من قومه سبعين رجلاً ليكونوا معه عند مناجاته لربه؛ ليشهدوا صدقه ويعلموا حاله، فلما حضروا معه: طلبوا رؤية الله جهرًا فأصابهم الله بالزلزلة، والصعقة، فقال موسى آسفًا متحسّرًا: يا رب لو أردت أهلكتنا قبل هذا الميقات، فماذا أقول إذا عدت إلى بني إسرائيل وقد هلك السبعون، فيا رب: لا تعذبنا بفعل الجهلاء الطائشين منا، وهذا امتحان واختبار منك، تضل من أردت وتهدي من أحببت، بيدك الأمر كله، أنت متولي أمورنا، بيدك نفعنا وضرنا، فاغفر يا ربنا ذنوبنا، وارحم ضعفنا برحمتك الواسعة، وأنت خير من غفر الذنب، فأنت تغفر تكرمًا لا لنفع تريده، وتتجاوز فضلاً لا لمصلحة من العباد.

﴿١٥٦﴾ ﴿ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

وقدِّر لنا يا ربنا في هذه الدنيا خيرًا كثيرًا من الصحة والغنى والعزة والعمل الصالح، واجعل لنا في الآخرة الجنة والرحمة والمغفرة من الذنوب، إنَّا عُدنا إليك مستغفرين تائبين نادمين على ما فعلنا، فقال الله لموسى: إن هذا العذاب الذي عذبتُ به بني إسرائيل مثل الرجفة أُعذبُ به من أشاء من العصاة، ورحمتي شملت كل شيء من المكلفين

وغيرهم، وهي الرحمة الواسعة التي سبقت غضبه - سبحانه وتعالى - فهو أرحم الراحمين، ويقدرها - سبحانه - لمن اتقاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ولمن اجتنب الشرك وكبائر الذنوب، والذين يؤدون زكاة أموالهم المفروضة عليهم ويتطهرون بها من الدنس، ويزكون أرواحهم بها من المعاصي والذين يصدقون بآيات الله ولا يكذبون رسل الله.

﴿١٥٧﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

هؤلاء هم الذين يقتدون بالنبي المعصوم ﷺ الذي شرّفه الله بالرسالة وأكرمه بالنبوة وأيده بالعصمة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب؛ ليكون ذلك أتم للمعجزة، وهذا النبي العربي مكتوب عند اليهود في التوراة وعند النصارى في الإنجيل، وهو يأمر أتباعه بكل خير دلَّت عليه الفطرة السليمة والعقل الصريح والنقل الصحيح، ويحذِّرهم وينهاهم عن كل منكر استقبحته النفوس وحرَّمته الشرائع، ويحل لهم من الطعام والشراب واللباس كل ما طاب وكل حلال مستلذ ليس بخبيث ولا نجس ولا ضار، ويحرِّم على أتباعه كل خبيث من قبائح المأكولات والمشروبات والملبوسات التي تنفر منها الطباع السليمة والفطر المستقيمة، وتحرِّمها الأدلة الصحيحة وهو يحط عنهم كل ما ضايقهم من الأوامر الشديدة الغليظة، وكل ما يكلِّف عليهم ويشق عليهم، فهو بُعث باليسرى وبالبشرى ﷺ، وجاء بما ينسخ كل حكم فيه مشقة على النفوس كان يُعمل به في الشرائع السابقة، فالذين صَدَّقوا به واتبعوه وآمنوا بما أرسل به وناصروه ووقّروه وحموه من عدوه وجاهدوا معه واهتدوا بالهدى الذي بُعث به وهو القرآن والسنة المطهرة، فهؤلاء هم الذين فازوا في الدنيا والآخرة، فازوا بالهداية والاستقامة والجنة والرضوان.

﴿١٥٨﴾ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

قل أيها الرسول للناس جميعًا: إن الله أرسلني إلى الثقلين الجن والإنس وإلى البشر كافة، فدعوتي عامة شاملة لكل إنسان، والله الذي أرسلني هو المستحق للعبودية؛ لأنه الذي ملك السموات والأرض وصرفها ودبّرها، فملكه ملك تام - جل في علاه - فهو المستحق للألوهية، وهو - سبحانه وتعالى - الذي يُوجِد من العدم، ويخلق الخلق، وهو يفنيهم، فهو الرب وحده الذي له صفات الربوبية، فحقه أن يُعبد وحده، فعليكم بتصديق ما أنزل الله وما أُرسل به الرسول ﷺ الذي أكرمه الله بالنبوة، والذي جعله - سبحانه وتعالى - أميًا لا يقرأ ولا يكتب؛ ليكون أتم للمعجزة، وهذا النبي مصدق لما أنزل الله من الكلمات الشرعية، فعليكم بتصديقه وامتثال أمره والاقتداء به ﷺ والاتساء بسنته المطهرة، فإن هذا هو الفلاح في الدنيا والآخرة، والفوز الأعظم الذي يوصلكم إلى رضوان الله ورحمته وجنته.

﴿١٥٩﴾ ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

وهناك طائفة كبيرة من أمة موسى يُرشدون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهم مداومون على الحق يقولون به ويقضون به ويعملون به فأجرهم على الله.

﴿١٦٠﴾ ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

وقسَّم الله - سبحانه وتعالى - بني إسرائيل إلى اثني عشر سبطًا، والسبط هو: ولد الولد أو ولد البنت، وهو ما يقارب القبيلة، فقسَّمهم إلى هذه الأقسام، وأوحى الله إلى موسى لما طلب منه قومه السقيا، فأمره - سبحانه وتعالى - أن

يضرب الحجر بعصاه، فلما ضرب موسى - بسم الله - الحجر انفجر هذا الحجر اثنتي عشرة عينا بعدد هؤلاء الأسباط؛ ليعرف كل سبط منهم عين الماء المخَصَّصة له؛ ليقل الزحام وليرتفع الخصام، ولتتميز هذه الأقسام، فأخذوا يشربون الماء البارد، ورزقهم الله - سبحانه وتعالى - الظل الوارف بأن ظلل عليهم الغمام ونجاهم من الحرِّ، وهيأ لهم الطعام من المن وهو الحلوى، والسلوى وهو الطير السمين، ثم أمرهم - سبحانه وتعالى - أن يأكلوا من هذا الحلال الطيب اللذيذ من رزقه - سبحانه - ويشكروه ولا يكفروه، ولكنهم ردوا نعمة الله -عز وجل- وجحدوا معروفه وإحسانه وعصوا أمره، قال سبحانه: وما ظلمونا بهذه المعاصي فالله لا تضره معصية العاصي، ولكنهم ظلموا أنفسهم، فسوف يقع بهم العقاب، وينزل عليهم العذاب.

﴿١٦١﴾ ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

واذكر - أيها النبي - يوم قلنا لبني إسرائيل مع موسى ادخلوا بيت المقدس وتناولوا ما أحل الله لكم من الطيبات واقبلوا رزق الله - سبحانه وتعالى - واستغفروا ربكم، وقولوا: يا ربنا حطَّ عنا سيئاتنا، واسجدوا سجدة الشكر له - سبحانه وتعالى - فإذا فعلتم ذلك غفر الله لكم خطاياكم وذنوبكم، وستر عيوبكم، وتجاوز عن سيئاتكم، ومن كان منكم محسنًا زاده الله بهذا الاستغفار درجات وكتب له حسنات.

﴿١٦٢﴾ ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

ولكن لخبثهم ولسوء طبائعهم غيروا الكلمة التي أمرهم الله بها وهي (حطة) فقالوا: (حنطة في شعرة) وكانوا ظالمين متجاوزين في ذلك الحد، فأنزل الله عليهم عذابًا من السماء، وغضبًا ماحقًا، ورجزًا ساحقًا، بسبب معاصيهم وتجاوزهم الحد ومخالفتهم أمر الله.

﴿١٦٣﴾ ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

وأسأل - أيها النبي - ذرية أولئك اليهود عما وقع على أهل القرية «إيلات» على ساحل البحر الأحمر يوم كانوا يتجاوزون حدود الله وقد نهاهم أن يصيدوا يوم السبت فتعرضوا للصيد يوم السبت، وكان من ابتلاء الله لهم أن الأسماك كانت تأتيهم يوم السبت الذي نُهوا عن الصيد فيه، ويوم ينتهي السبت لا تأتي بقية الأيام، وهذا امتحان عظيم واختبار كبير؛ لأنهم عصوا الله -عز وجل- وخالفوا أمره وعصوا رسوله، فجعل الله هذه البلية عليهم.

﴿١٦٤﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

وأتت طائفة كانت تعظهم، ثم يئست من صلاحهم، وقالت لطائفة ما زالت تعظهم وتأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر: لماذا تنصحون هؤلاء وقد كتب الله عليهم الهلاك؛ لأنهم خالفوا أمره فلا مصلحة من نصحهم ولا خير في وعظهم، فهم متعرضون للمحق وللفناء أو للعذاب الشديد، فقالت هذه الطائفة: نحن ننصحهم ليكون عذرًا لنا عند ربنا - سبحانه وتعالى - لئلا نشاركهم في ذلك، وربما أن الله -عز وجل- يصلحهم بوعظنا، فلعل الله أن يهديهم بما ننصحهم به وهذا مقصد من مقاصد النصيحة فإنها واجبة وإن تيقن الناصح عدم انتفاع المنصوح بها.

﴿١٦٥﴾ ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

فلما أعرض عصاة هذه القرية وخالفوا أمر الله ولم يمتثلوا وعظ الواعظين أنجى الله الذين نصحوهم سواء من يئس من نصحهم، أو من استمر في نصحهم، وأهلك العصاة ودمرهم بعذاب شديد وبعقاب أليم لمخالفتهم أمر ربهم والخروج عن طاعته.

﴿١٦٦﴾ ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾

فلما تجبر هؤلاء وتكبروا وتجاوزوا الحد وأعرضوا عن أمر الله -عز وجل- وارتكبوا معاصيه مسخهم الله قردةً أذلة حقَارًا مطرودين من رحمة الله مبعدين من رضوانه، وهذا جزاء من خالف أمر الله وارتكب نهيه.

﴿١٦٧﴾ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

واذكر - أيها النبي - حين أعلم ربك إعلامًا ظاهرًا صريحًا ليسلطن على اليهود إلى يوم القيامة من يذلُّهم ويستولي عليهم ويتسلط عليهم بذنوبهم؛ لأنهم خالفوا شرع الله -عز وجل-؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - سريع العقاب لمن عصاه، وهو غفور يتجاوز عن سيئات من أطاعه ويرحم من أقبل عليه وتاب وأناب.

﴿١٦٨﴾ ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ووزعنا اليهود في الأرض فلا يوجد بلد إلا وفيه يهود في الأكثر، منهم أخيار استقاموا على الشرع وآمنوا بالرسالة، ومنهم كفار فسَّاق خرجوا عن طاعة الله، وامتحنهم الله - سبحانه وتعالى - بالمصائب وبالنعم، وبالخوف والأمن، والشدة والرخاء، لعلَّهم أن يراجعوا أنفسهم ويعودوا إلى ربهم ويتوبوا إلى بارئهم.

﴿١٦٩﴾ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

فجاء من بعد هؤلاء الأقوام ذرية وخلْفٌ سيئ ورثوا علم التوراة، ولكنهم أخذوا الرشوة في الأحكام، وأكلوا السحت والتعامل بالحرام، وحرَّفوا آيات الله مقابل متاع قليل زائل من الدنيا، ويقولون سيغفر الله لنا بأمانيهم الباطلة، وكلما أتاهم مال آخر من الحرام أكلوه، ويتمنون على الله الأماني بالمغفرة، وقد أخذ الله عليهم في التوراة ألا يقولوا إلا الصدق، ولا يحكموا إلا بالحق، وقد قرؤوا ما في التوراة وفهموا وعلموا، لكنهم عصوا الله على علم، واعلموا أن الآخرة بما فيها من نعيم دائم وخلود مستمر خير وأبقى من هذه الدنيا الزائلة والمتاع الفاني، الذين يبيعون دينهم به ويشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً من أجل دنيا سوف تضمحل عما قريب.

﴿١٧٠﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

وأما الذين يلتزمون أوامرَ الكتب المنزلة من عند الله -عز وجل- ويعملون بما فيها ويداومون على الصلاة في أوقاتها، ويحافظون على ما تدعو إليه الصلاة من أوامر ويجتنبون ما تحذِّر عنه من نواهٍ فهؤلاء صالحون مُصلِحون، والله لا يضيع ثواب المصلحين، ولا يبطل سعيهم، وسوف يحفظ لهم أجرهم؛ فهم صالحون في أنفسهم مصلحون لغيرهم.

﴿١٧١﴾ ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

واذكر يوم رفعنا جبل الطور فوق رؤوس بني إسرائيل كأنه سحابة، وهددناهم بإيقاعه عليهم إذا لم يلتزموا أمرَ الله - سبحانه وتعالى - ويُوفُوا بالميثاق ويأخذوا ما آتيناهم من الرسالة بعزم وجد وعمل ويتذكروا ما في التوراة ويعملوا بها؛ لعلَّهم أن يتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿١٧٢﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾

وإذ أخرج الله من أصلاب بني آدم ذريتهم وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن؛ وحين أخرجهم من أصلاب آبائهم، قررهم بإثبات ربوبيته بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم وخالقهم ومالكهم، فقالوا: بلى أقررنا بذلك، ذلك لأن الله فطر عباده على الدين الحنيف القيم؛ ولكن الفطرة قد تتغير وتتبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، فالله - سبحانه وتعالى - أقام عليهم هذه الحجة والبرهان؛ لئلا ينكروا يوم القيامة فلا يقروا بشيء من

ذلك ويزعموا أن حجة الله عليهم لم تقم وليس عندهم علم بذلك وغفلوا عنه، فاليوم انقطعت عنهم الحجة وثبتت الحجة البالغة لله الواحد القهار.

﴿١٧٣﴾ ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

أو تقولوا: إن الذين أشركوا هم آباؤنا، ونحن جئنا بعدهم فحذونا حذوهم فاتبعناهم واقتدينا بهم، ونحن لم نعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ، فكيف تعذبنا يا ربنا بما فعل هؤلاء الآباء، فإنهم هم الذين سنُّوا الشرك بك ونحن جُهلاء لا نظر عندنا.

﴿١٧٤﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ومثل البيان للميثاق السابق نبيِّن الآيات البينات والمعجزات الظاهرات ليتدبرها أهل الفطر السليمة والأنظار المستقيمة؛ وليتوبوا من الشرك ويعودوا إلى التوحيد ويؤمنوا بالله وحده.

﴿١٧٥﴾ ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

وقص عليهم - يا محمد - وأخبرهم بخبر ذلك الرجل الذي آتيناه علمًا من علم الأنبياء الذي أنزله في كتبه، وهو من علماء بني إسرائيل (بلعم بن باعوراء) فترك العمل بآيات الله وأهملها وتبرأ منها، فاستولى عليه الشيطان وصار قرينه، يتبع أوامره ويقتدي به، وصار من رؤوس أهل الضلالة، ومن أئمة الغواية ومن أكبر المفسدين.

﴿١٧٦﴾ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ولو شاء الله له الرفعة والمكانة العالية والدرجة السامية؛ لأكرمه وجعله عاملاً بعلمه، متبعًا لآيات ربه مهتدٍ بهداه، ولكنه اتبع هوى نفسه الأمارة بالسوء وآثر الدنيا على الآخرة وركن إليها، وآثر المتاع الزائل الرخيص على النعيم الباقي الدائم في جنات النعيم، فمثله مثل الكلب إن تطرده وتزجره يلهث، وإن تتركه يلهث، فهو مكروب دائمًا، ويركض وراء شهواته، وهذا الرجل يركض وراء الدنيا كركض الكلب وراء ما يريده، وهذا المثل الدنيء الرخيص الخسيس هو مثل القوم الذين يكذبون بآيات الله من اليهود والمشركين وغيرهم بعد أن اتضح لهم أنها من عند الله، فعليك أن تخبر الناس بهذه الأمثال وتقص عليهم هذه القصص؛ لتكون عبرةً وعظةً لعلَّهم يتفكرون ويتدبرون.

﴿١٧٧﴾ ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾

بئس هذا الوصف والمثل، مثل الذين كذبوا بآيات الله وجحدوا رسالته وحاربوا رسله، فهم الذين ظلموا أنفسهم بالتكذيب، وتسببوا في العذاب النازل بهم لكفرهم.

﴿١٧٨﴾ ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِيۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

الذي يوفقه الله - سبحانه وتعالى - للخير وللإيمان وللعمل الصالح، فهو المهتدي حقًا، والذي يخذله ولا يهديه سواء السبيل ولا يرشده، فهو الذي خسر الخسارة الكاملة التامة.

﴿١٧٩﴾ ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

ولقد خلقنا للنار كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لكنهم لا يفقهون بها الحق، ولا يفهمون بها الأدلة، ولا يتبصرون بها النصوص الشرعية، ولهم أعين لا يشاهدون بها قدرة الله ووحدانيته وآيات عظمته في الكون، ولهم آذان لكن لا

يسمعون بها النصائح والمواعظ سماع قبول، وتدبروا عمل هؤلاء إنهم كالبهائم في عدم استفادتهم من الحواس والجوارح التي وهبهم الله، بل هم أضل من البهائم؛ لأن البهائم تعرف بقدر ما أعطاها الله ما ينفعها وما يضرها في معيشتها، أما هؤلاء فلا يميزون بين الحق والباطل، وهم معرضون عن آيات الله -عز وجل- ساهون عنها لاهون.

﴿١٨٠﴾ ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وله - سبحانه وتعالى - الأسماء الحسنى التي سمى بها نفسه من التسعة والتسعين اسمًا وغيرها، فالواجب أن يُدْعَى بها، وأن يُناجى بها، ولا يُحَرَّف فيها ولا يُسمى - سبحانه وتعالى - بأسماء لم يَنْزِل بها منه سلطان في الكتاب ولا في السنة، فالواجب التقيد بها؛ لأنها توقيفية، والواجب ترك من مال عن هذه الأسماء وألحد فيها فحرَّفها وسمى الله بغير أسمائه الشرعية، فهؤلاء عقابهم عند الله سيجزيهم وصفهم ويلقون جزاء افترائهم.

﴿١٨١﴾ ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

وممن خلق الله - عز وجل - من الأمم والناس فريق كثير هم على خير وهدى وبصيرة، يدعون إلى الحق، وينهون عن الباطل، ويحكمون بالعدل في أحكامهم ويستضيئون به.

﴿١٨٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وأما الذين كذبوا بآيات الله الشرعية في كتاب الله وجحدوا بها وكفروا، فهؤلاء مصيرهم إلى الله سوف يأخذهم قليلاً قليلاً إلى الهلاك من حيث لا يعلمون، ويستدرجهم إلى مهاوي الهلاك بنعم لم يشكروا الله عليها، وبنقم مخبأة في نعم، ومحن مستورة في منح، فإن كيده متين سبحانه.

﴿١٨٣﴾ ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾

ويمهلهم - سبحانه وتعالى - ويؤخر لهم العقوبة لتدبير عظيم خفي محكم قوي لا يُطاق، فإنه - سبحانه وتعالى - له في إهلاك أعدائه من الوسائل التي تَحَار فيها العقول، وتذهل منها الأذهان ما لا يدور بالخيال، فكيده - سبحانه - ذاك الكيد القوي المبرم المحكم الذي لا يستطيع البشر له.

﴿١٨٤﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

أغفلوا ولم يتفكروا في حال نبينا المرسل إليهم الذي رموه بالجنون، والواقع أنه ليس به جنون، وما هو إلا نذير يُبين لهم شرع الله ويحذرهم من عذاب الله وعقابه.

﴿١٨٥﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾

لماذا لم يتفكروا وينظروا نظر اعتبار في أجرام السموات والأرض وهذا البناء الشاهق الضخم العظيم، وينظروا في كل ما خلق الله من الآيات الواضحة البينة على قدرته - سبحانه وتعالى - ويمكن أن أجلهم قد اقترب، وأن نهايتهم أوشكت، فلماذا لم يراجعوا أنفسهم؟ وإذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم المعجز المفحم الخالد، فبأي حديث بعده، وبأي كلام يمكن أن يصدقوا ويتأثروا؟.

﴿١٨٦﴾ ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

من لم يوفقه الله - عز وجل - للهداية فلا موفق له، ولا مرشد له، وهو مخذول هالك، والله سبحانه وتعالى يترك أعداءه في ضلالهم وفي حيرتهم تائهين، لا هاديَ يهديهم، ولا نصح ينفعهم، ولا موعظة تفيدهم.

﴿١٨٧﴾ ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يسألك الكفار - يا محمد - متى الساعة ومتى قيامها ومتى موعد انتهاء العالم؟ فقل لهم: إن علم الساعة سرٌ لا يعلمه إلا الله لم يُخبر به ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً، ولم يَطَّلِعْ عليه إلا الله - سبحانه - ولا يظهره إلا وقت مجيئه والساعة عظيمة في السموات والأرض، فهي من أعظم الآيات ومن أدهى الأمور، ولا تأتي إلا فجأة دون أن يعلم أحد متى تجيء، فمجيئها يُذهل العقول، وهؤلاء الكفار يسألونك - يا محمد - كأنك أنت مهتم بأخبار الساعة، تسأل عنها وتعرف أخبارها وتحيط بأشراطها، فأخبرهم أن علمها عند الله وحده، ولا يعلم علمها سواه - سبحانه وتعالى - لكن هؤلاء الجُهلاء لا يعلمون أن الله وحده هو الذي يعلم، فهم في شكِّهم مترددون، ومنهم من هو منكر للساعة، ومنهم ما هو مرتاب فيها.

﴿١٨٨﴾ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

وأخبرهم - أيها النبي - أنك لا تستطيع أن تجلب نفعًا لنفسك لم يُرِدْه الله، ولا تستطيع دفع ضرٍ وقع بك إلا ما أراد الله دفعه، فهو - سبحانه وتعالى - المقدر لكل نفع وضر، فبيده الخير والشر، وهو الذي قضى كل الأمور، ولو كنت أنت تعلم الغيب لاستكثرت من جلب الخير لنفسك، وحرصت على كل نفع، واقتنصت كل فرصة؛ لأنك قد اطلعت على مناسباتها، ولو كنت تعلم الغيب ما مسَّك الضر، فكنت متحصنًا متحذرًا تتوقاه، لكنك لا تعلم الغيب، ومهمتك أنت إنما هي النِّذَارة، أن تكون نذيرًا لمن عصى الله بالنار، ومبشرًا لمن أطاعه بالجنة، ولكن الذي يستفيد منك من نذارتك وبشارتك هم المصدقون المتبعون لك المؤمنون بما جئت به.

﴿١٨٩﴾ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

الله - سبحانه وتعالى - هو الذي خلقكم من آدم، ثم خلق من آدم حواء من شكله؛ ليأنس بها ويسكن إليها، فلما غشيها آدم حملت حملاً خفيفًا فذهبت وأتت وهو في بطنها، فلما كبر هذا الحمل دعا آدم وحواء الله - سبحانه وتعالى - وعاهداه لئن أتاهما ولدًا سليمًا من العاهات صالحًا من غير نقص ليشكرنَّ نعمة الله -عز وجل- على هذا العطاء.

﴿١٩٠﴾ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

فلما آتاهما الله -عز وجل- هذا الولد الصالح السليم من العاهات التام الخلقة، أخذا يسميانه عبد الحارث بوسوسة من الشيطان، والعبودية إنما هي له وحده - سبحانه وتعالى - ولا يجوز صرف شيء منها لغيره، فسبحانه أن يكون له شريك، وتقدَّس - سبحانه - أن يكون له ولد، وتعالى أن يكون له ندٌّ أو ضد.

﴿١٩١﴾ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

كيف يشرك الناس بالله معه آلهة أخرى من الأصنام، وهي لا تخلق شيئًا ولا ترزق أحدًا، وإنما الخالق هو الله وحده - سبحانه - فهو أحق بأن يُعبد، والخلق أعظم آية من آياته - سبحانه وتعالى - ولذلك ذُكِرَت عند ذكر الألوهية والشرك كثيرًا.

﴿١٩٢﴾ ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

وهذه الأصنام لا تملك لمن عبدها نصرًا، فهي لا تدفع عنه ضُرًا، ولا تجلب له نفعًا، وهم أنفسهم يعجزون عن نصر أنفسهم عند نزول البأس بهم والعذاب، إنما الذي يملك النصر هو الله -عز وجل-، والذي يملك النفع والضر هو وحده تبارك وتعالى.

﴿١٩٣﴾ ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾

وإن تطلبوا من الأصنام الهداية لا تهتدي لنفسها، فكيف تهدي غيرها، ولجمادها لا تسمع ولا تعي، فسواء خاطبها الإنسان بكلام أو سكت فهي لا تدري ما يُقال لها.

﴿١٩٤﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

وهذه الأصنام التي يعبدها الناس من دون الله هي مخلوقة كما أنكم مخلوقون، وهي خاضعة لقدرة الله ومملوكة له، فإن كنتم شاكين في نفعها وضرها فاطلبوا منها أن تنفعكم، أو أن تدفع عنكم ضرًا إن كنتم صادقين أنها تملك ذلك، أو أن لها حياةً، أو أن لها تأثيرًا، فسوف ترون أنها لا تملك نفعًا ولا ضرًا، فالذي يجيب الدعاء ويكشف الضراء، ويدفع البأساء، ويجلب النعماء، ويأتي بالرخاء هو رب الأرض والسماء.

﴿١٩٥﴾ ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

ألهذه الأصنام التي عبدتموها وسجدتم لها، ألها حياة؟ ألها جوارح؟ ألها آلات تستخدمها في مزاولة أعمالها؟ هل لها أرجل تمشي بها لأداء أغراضها؟ أم لها أيادٍ تعمل بها وتأخذ وتعطي؟ أم لها أعين تبصر بها وتشاهد؟ أم لها آذان تسمع بها ما ينفعها؟ قل ادعوا شركاءكم من هذه الأصنام واستعينوا بها، ثم كيدوني إن أردتم وحاربوني بها ولا تمهلوني ولا تتأخروا في إضراري إن استطعتم، وهذا غاية التحدي ونهاية الثقة بالله -عز وجل- والتوكل عليه، فهم وأصنامهم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا، بل هم أذل وأضل من أن يضروا من خالفهم؛ لأنهم يحاربون ملك الملوك لا إله إلا هو.

﴿١٩٦﴾ ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وليّي وناصري هو الله الواحد الذي نزل الكتاب ليكون نذيرًا للعالمين وهو - جل جلاله - يتولى الصالحين الذين صلُح بالهم - وصلحت أعمالهم.

﴿١٩٧﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

وهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله لا تجلب لكم نفعًا ولا تدفع عنكم ضرًا، وهي عاجزة عن نصر أنفسها، فكيف تنصركم؛ إنها جامدة خامدة هامدة.

﴿١٩٨﴾ ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

وإذا طلبتم من هذه الأصنام أن تهتدي وخاطبتموها بالكلام والمواعظ فإنها لا تسمع؛ لأنها حجارة جامدة، وتراها وهي مصورة كأنها تنظر إليك إذا قابلتها، وهي لا تبصر ولا ترى؛ لأنها حجارة منحوتة جامدة.

﴿١٩٩﴾ ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

خذ - أيها النبي - من أخلاق الناس ما سهل وما تيسر وما جادوا به دون إعنات منهم أو طلب الزيادة منهم، بل ما أتاك من الواحد منهم فاقبله ولا تكلفهم شططًا وتريد منهم أكثر مما يستطيعون، عليك أن تأمرهم بكل مستحسن عقلاً وشرعًا من الأقوال والأعمال، وهو ما يوافق الفطر السليمة، والعقول الصحيحة، وأعرض عن السفهاء والحمقى والجهلاء، فلا تعاملهم بجهلهم وسفههم وترفّع عنهم، فإنك على هدىً مستقيم.

﴿٢٠٠﴾ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

إذا وسوس إليك الشيطان بشيء من الفساد والأمر بالسوء فاستعن بالله عليه والتجئ إلى الله - سبحانه وتعالى - واسأل ربك أن يدفع عنك مَكْرَه ووسوسته، فإن الله يسمع الدعاء ويعلم بالحال، ويطلع على الأعمال وكفى به حسيبًا.

﴿٢٠١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

إن المتقين الذين اتقوا ربهم وخافوا عقابه وعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه إذا أصابهم أو ألمت بهم وسوسة أو نزغ من الشيطان تذكروا ربهم - سبحانه وتعالى - وما أعد لأعدائه، فخافوه واستيقظوا من غفلتهم، وقاموا من كبوتهم، واستغفروا من زلتهم، فإذا هم يبصرون الخطأ ويكتشفون السوء، ويرون الطريق المستقيم فيعودون إلى رشدهم.

﴿٢٠٢﴾ ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

وإخوان الشياطين من الكفار المشركين يعاونونهم في الضلال، أو أن الشياطين يعاونون الكفار على الشرك والفساد في الأرض، وهم لا يكفون عن إفسادهم ودعوتهم إلى الباطل والإمعان بهم في الضلال، ولا يقصرون عن ذلك، بل هم دائمًا وأبدًا في أفعالهم المشينة، وأعمالهم القبيحة، مستمرون منتهكون لمحارم الله.

﴿٢٠٣﴾ ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

وإذا لم تأت - أيها النبي - هؤلاء المشركين بمعجزة مما طلبوا أو بآية من القرآن، فإنهم يقولون لك: هل اخترعتها أنت من عند نفسك؟ فأجبهم أنك نبي مرسل من عند الله وعبد مأمور تتبع وحي الله - عز وجل -، ولا تستطيع أن تأتي بالآيات من عندك، ولا تستطيع أن تخترع المعجزات، ويكفي هذا القرآن فإنه ينير القلوب في ظلماتها، وفيه براهين صادقة وأدلة واضحة ونور تام يميز بين الحق والباطل، وبين الصدق والكذب، وفيه هداية يرشد به الله من شاء من عباده، ورحمة لمن اتبعه وآمن به وصدقه وامتثل أوامره.

﴿٢٠٤﴾ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وإذا سمعتم كتاب الله سبحانه وتعالى يُتلى عليكم في الصلاة وغيرها فاستمعوا للتفهم والتدبر، وأنصتوا للتَّعَقُّل والتفكر والتفقه، ودعوا الشواغل والكلام عند استماع تلاوته لعلّكم تنالون رحمة الله - عز وجل - وتظفرون برضوانه وتمتثلون أمره وتنالون كرمه وتحوزون ما عنده - سبحانه وتعالى - من قبول وحظوة، فإن هذا الكتاب طريق لكل هداية، ومرشد لكل فلاح.

﴿٢٠٥﴾ ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾

وعليك بذكر الله - عز وجل - مداومًا عليه، واستمر على تذكره في نفسك بالدعاء والذكر والابتهال، وتوسط في ذكر الله، فلا تجهر به فيكون سببًا للتشويش على الناس وعلى النفس، ولا تُسِرَّ فلا تسمع نفسك ومن حولك، وعليك بذكر الله - عز وجل - في صباح كل يوم ومسائه، ولا تكن من المعرضين عن ذكره، اللاهين عن عبادته، الصادين عن آياته.

﴿٢٠٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾

وعليكم - أيها المؤمنون - أن تتشبهوا بالملائكة، فإنهم خاضعون لله - عز وجل - خاشعون لأمره طائعون له - جل في علاه - يذكرونه كل وقت وآن، لا يسأمون ولا يفترون، مع الخضوع التام والخشوع الكامل والتبتل إليه بالعبادة؛ فكونوا مثلهم في طاعتكم وفي إخباتكم وسجودكم، تنالوا رضوان ربكم وتفوزوا برحمة مولاكم.

مدنية

سورة الأنفال

ترتيبها ٨

آياتها ٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

يسألونك - يا محمد - عن قسمة غنائم المعركة، فأخبرهم أن حكم قسمتها عند الله والرسول، فعليكم أنتم بتقوى الله وطاعته وخشيته والإنابة إليه، تصلح أموركم ويرزقكم من فضله، فحق الله تقواه، وحق الناس صلاح ذات البين بترك الخلاف والشقاق واجتناب البغضاء والشحناء، وأعيدوا كل خلاف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فبهذا تحققون طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، فمن أصلح ما بينه وبين الله وما بينه وبين الناس وحكم الكتاب والسنة في حياته أفلح وفاز بخيري الدنيا والآخرة، هذا لمن كان صادقًا في إيمانه مخلصًا في طاعته.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

والمؤمنون الكاملون هم الذين تخاف قلوبهم عند ذكر مولاهم ويزدادون إيمانًا عند سماع آياته، ويفوضون أمرهم إلى ربهم، ويثقون به لا سواه، وفي الآية فضل الخوف من الله والهيبة له عند ذكره، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن التوكل على الله من أجلِّ الأعمال وثمرته العز والقوة.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

هؤلاء المؤمنون الصادقون يؤدون الصلاة على أكمل وجه في وقتها بخشوعها وآدابها، ويعطون زكاة أموالهم لمستحقيها، ويتصدقون بفضول ما رزقهم الله، فهم يؤدون زكاة الروح الصلاة، وزكاة المال الزكاة.

﴿٤﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

هؤلاء المؤمنون هم من صدق في إيمانه وأحسن في عمله، فهم الذين وصلوا إلى الحقيقة، ولزموا أجمل طريقة، لهم عند ربهم منازل رفيعة، ومراتب عالية من الإكرام في دار السلام والإنعام، في جوار الملك العلام مع غفران الذنوب، فلا تبعة عليهم ولا عقاب، ولا مؤاخذة، مع رزق لا تنغيص فيه، وعطاء لا كدر معه، ونعيم لا شائبة تشوبه.

﴿٥﴾ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾

كما كره بعض المؤمنين قسمة الغنائم يوم بدر كذلك كرهوا الخروج معك للقتال، مع أن خروجك للغزو من بيتك مصلحة ظاهرة، وصواب متيقن، ورشد واضح، أذن الله به وأحبه واختاره لك، وكان بعضهم كارهًا للخروج لقلة العتاد وضعف الاستعداد، فكان عندهم للنصر استبعاد.

﴿٦﴾ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾

يجادلك هؤلاء المؤمنون في خروجك إلى بدر، وهو أمر مشروع، وخروج موفق، وسفر راشد، فكأنهم لشكهم في النصر يدفعون إلى الموت دفعًا من شدة الخوف ورهبة الموقف وكراهية القتال والحذر من النزال.

٧ ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وتذكروا حين وعدكم الله إما طائفة العير القادمة من الشام بالطعام، وإما طائفة قريش القادمة من مكة بالسلاح، وتريدون أنتم طائفة العير غير المسلحة؛ لتكون غنيمة باردة لكم بلا قتال، لكن الله يريد إعزاز الدين وهزيمة الكافرين وتمحيص المؤمنين والنصر لرسوله ﷺ ولكم؛ ليعلو الحق على الباطل وأهله، ويستأصل الكفار عن آخرهم.

٨ ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

لينصر دينه وعباده ويؤيد أولياءه ورسالته، ويهزم الكفر وأتباعه ويذلهم ويخزيهم ولو كره ذلك أهل الشرك وعبدة الطاغوت، فكلمة الله تامة، ودينه منصور، وحزبه غالب، وعدوه مخذول.

٩ ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

واذكروا وأنتم تسألون ربكم بإلحاح أن ينصركم على عدوكم فأعانكم بألف من ملائكة السماء يقاتلون معكم المشركين، وهؤلاء الملائكة يتبع بعضهم بعضًا في صفوف متراصّة. وفي الآية فضل الدعاء ونصر الله لأوليائه.

١٠ ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

وما جعل الله إنزال الملائكة معكم إلا بشارةً بالنصر، ولتسكن قلوبكم من الخوف، والله الناصر وحده لا غيره، فلا أنتم ولا الملائكة من قدَّر النصر في بدر، ولكنه الله الذي يملك الأمر، وإنما قتالكم سبب له، والله قوي لا يُغَالب، قاهر لا يُحَارب، حكيم في أفعاله، يضع كل أمر موضعه للعلم الشامل والحكمة المتناهية، وفي الآية الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب.

١١ ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

وتذكروا يوم ألقى الله عليكم النعاس ليلة بدر لتشعروا بالأمن والسكينة، ويذهب عنكم الخوف والقلق، ويُنزل عليكم من الغمام ماءً طاهرًا تتوضؤون به من الحدث وتغتسلون به من الجنابة، وليزيل عنكم وسوسة الشيطان، ولتقوية قلوبكم وإنزال الثبات عليها لئلا تصاب بالجبن والجزع، ولتثبت أقدامكم في الأرض بعد نزول المطر؛ لأنه شَدَّ الأرض فتماسكت به بعدما كانت رخوةً لينة، فثبت الله منهم القلوب بالأمن، والأقدام بالغيث.

١٢ ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

وتذكروا يوم أوحى الله إلى الملائكة أني معكم بنصري وتأييدي فثبتوا المؤمنين في بدر، وبشروهم بالنصر على أهل الكفر، وسوف أجعل الخوف في قلوب الكفار ليولوا الأدبار، فأعملوا سيوفكم في رقابهم لتقطع رؤوسهم، وقَطِّعوا أصابعهم فلا يستطيعوا إمساك السيوف والرماح.

١٣ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

وسبب قتل المشركين؛ أنهم حاربوا الله ورسوله وعَادَوا دينه وجحدوا آياته، وكل من يعادي الواحد الأحد ويحارب ملك الملوك فتبًّا له وهلاكًا وسحقًا ومحقًا، فالله قوي الأخذ شديد البطش سريع العقاب، من حاربه خذله، ومن عاداه أخزاه، ومن قاتله أهلكه.

(١٤) ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

ذلكم العقاب - أيها الكفار - الذي حصل لكم يوم بدر بأيدي الملائكة والمهاجرين والأنصار هو عذاب الدنيا، فذوقوا ألمه وتجرعوا غصصه، ولكم في الآخرة عذاب النار من الأغلال والأنكال وسوء المآل وقبح الحال.

(١٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾

أيها المؤمنون، إذا صففتم أمام الكفار وواجهتموهم في المعركة وهم أمامكم يزحفون إليكم فلا تفروا وقت اللقاء، ولا تنهزموا أمام الأعداء، بل عليكم بالثبات والصبر، وأبشروا بالنصر.

(١٦) ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ومن يفر من مواجهة الكفار، ويولّهم الأدبار، فقد باء بغضب الجبار؛ لأنه آثر الحياة الدنيا على الآخرة، وشك في وعد الله، وأوهن الدِّين، إلا إذا كان قصده الانحراف للكر والفر، والمجاولة والمصاولة وخديعة العدو، أو انضم إلى طائفة من المؤمنين يقاتل معهم، فمن فرَّ بلا عذر من هذه الأعذار فجزاؤه النار، وبئس القرار، مع غضب من الله شديد، فواجب على كل مسلم مصابرة أعداء الملة في كل ساحة من ساحات الجهاد القتالية والعلمية والفكرية والأدبية وغيرها.

(١٧) ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

فأنتم لم تقتلوا المشركين بقوتكم، ولكن الله قتلهم بقوته ونصره، فهو الغالب على كل شيء، وأنت - أيها الرسول - ما رميت وجوه المشركين بالحصى حين رميت، ولكن الله هو الذي رمى وجوههم، فوقع الرمي عليهم، فهو الذي قدّر وأعان وأيد وسدد ونصر، والله يمتحن المؤمنين بنصره لهم وإعزازهم وتأييدهم، وتمكينهم في الأرض، فهو سامع لكل مسموع، عالم بكل شيء، يسمع الأقوال ويعلم الأحوال؛ فاختياره عن علم، وتقديره عن حكمة. وفي الآية أن الأسباب وحدها لا تكفي بل لابد من التوكل على الله وطلب العون منه.

(١٨) ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

ذلكم النصر الذي أيدكم الله به في بدر لامتحان المؤمنين، وإبطال الكافرين، وإفشال تدبير المشركين.

(١٩) ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

إن كنتم تسألون في دعائكم - أيها المشركون - أن ينصر الله أحق الطائفتين بالنصر قبل بدر فقد جاءكم الحكم في بدر بأن نصر الله أولياءه وهزم أعداءه، وأيّد أهل الحق وخذل أهل الباطل، ومكَّن للمؤمنين وأهان الكافرين، وإذا انتهيتم عن عَدَائكم للإسلام وتكذيبكم للرسول - عليه الصلاة والسلام - وعبادتكم للأصنام، فهو خير لكم في الدنيا والآخرة، وإن تعودوا لكيد الدين نعد عليكم بكيدنا المتين، فكلما حاربتم هزمناكم أبدًا، ولن ينفعكم جمعكم مهما كثر، فالله أقوى وأجل، ولن ينصركم أحد من دونه، والله - دائمًا - مع أوليائه المؤمنين بالتأييد والتسديد والنصر والإعانة، ومن كان الله معه فمن يخاف؟ ومن كان الله ضده فمن يرجو؟

(٢٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

أيها المؤمنون، امتثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه، واتبعوا رسوله تسعدوا وتفلحوا في الدارين، ولا تعرضوا عن هُدَى الله وهَدَى رسوله، وأنتم تسمعون القرآن والسنة بما فيهما من نصائح ومواعظ ووعد ووعيد.

﴿٢١﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

ولا تكونوا كمن كفر بالله وادَّعى سماع الهدى الذي أنزله الله على رسله، وفي الحقيقة أنهم لم يسمعوا سماع قبول واستجابة وعمل وفهم، وفقه ومعرفة، إنما كسماع البهائم للصوت لا للفحوى، وللفظ لا للمعنى.

﴿٢٢﴾ ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

إن شرَّ ما دب على وجه الأرض عند الله الذين صُمَّت آذانهم عن سماع داعي الحق، وخرست ألسنتهم عن النطق بالصدق، الذين لا فقه عندهم في المعاني، ولا فهم في المقاصد، ولا إدراك للنافع والضار، ولا تميز بين الحق والباطل، فهم كالأنعام السائمة، والدواب الهائمة، فطر منكوسة، وبصائر مطموسة، جهل مطبق، وسفه محقق.

﴿٢٣﴾ ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

ولو علم الله في قلوب هؤلاء الكفرة حبًا للهداية واستعدادًا لقبول الحق، وفطرة مهيأة للاستجابة، لأسمعهم سماع نفع وفقه يفهمون به الخطاب، ولو فُرِضَ أن الله أسمعهم لصدوا عن الإيمان، وأعرضوا عن الاهتداء بالقرآن، استكبارًا وعتوًا، وعنادًا وفجورًا.

﴿٢٤﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

أيها المؤمنون، أحسنوا الاستجابة لله باتباع أمره واجتناب نهيه، واستجيبوا للرسول ﷺ بحسن الانقياد له وجميل المتابعة والاقتداء بسنته؛ لأن في الاستجابة لله ولرسوله حياتكم السعيدة وعزتكم الغالية، ونصركم المجيد وفلاحكم الدائم؛ لأنكم بغير هذه الاستجابة أموات أذلة هالكون، وتيقنوا أن الله قدير أن يحول بينكم وبين قلوبكم، فيتصرف فيها كما يشاء فيسلب منها الإيمان ويذهب منها اليقين ويطمس منها الهدى ويحجبها عن النور، ثم إنّ المعاد إليه - سبحانه - والحساب عنده؛ ليجازي كل عامل بعمله، وهذا يوجب الحذر من زيغ القلوب والخوف من الرجوع إلى علام الغيوب، والبعد عن المعاصي والذنوب.

﴿٢٥﴾ ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

أيها المؤمنون، احذروا فتنة قد تقع بكم لتقصيركم في الاتباع، وإهمالكم التناصح، فتعم الجميع، وتأخذ الكل، وتنال بضررها الناس كافة؛ لسوء فعل العاصي، وسكوت البريء، كمن شاهد المنكر ولم ينكره مع قدرته على إنكاره، فيعاقب العامة بذنوب الخاصة، وتيقنوا أن الله شديد العذاب قوي العقاب، أليم الأخذ، إذا أخذ القرى أفناها، وإذا عاقب الشعوب أبادها، وإذا غضب أتلف، وإذا بطش أهلك، فيا من يرى سفينة الأمة تغرق بالمعاصي خذ على يد العاصي، وإلا غرقت مع من غرق ولا عاصم - يومئذ - من أمر الله إلا من رحم.

﴿٢٦﴾ ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

وتذكروا - أيها المؤمنون - قبل الهجرة يوم كنتم في قلة وذلَّة تخافون المشركين وقد أحاطوا بكم وبسطوا عليكم الأذى والتعذيب والإساءة، فهيأ لكم المدينة مأوىً يحميكم، وملجأ يمنعكم منهم، ونصركم عليهم في بدر وغيرها، وهيأ لكم رزقًا حلالاً طيبًا من الغنائم وسواها؛ لتشكروا ربكم بطاعته وحسن عبادته ومتابعة رسوله واجتناب ما نهى عنه، فمن دعائم الشكر تذكر ما مر من البؤس قبل النعم، والتفكر في الشدة التي سبقت الفرج؛ ليصدر الشكر من القلب.

﴿٢٧﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أيها المؤمنون: لا تخونوا الله بنقض ميثاقه وترك أوامره وارتكاب معاصيه ونكث العهود والعقود التي قطعتموها على أنفسكم في العقائد والعبادات والمعاملات، ولا تخونوا الرسول ﷺ بالخروج عن هديه والبعد عن سنته والوقوف مع

أعدائه والتأليب على أتباعه، ولا تخونوا كل ما اؤتمنتم عليه من حقوق وواجبات وأسرار ومعاهدات، وشروط ومعاقدات، وأنتم تعلمون أن هذا الفعل حرام وأنتم متعمِّدون فعله.

﴿٢٨﴾ ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

وتيقنوا أن أموالكم وأولادكم ابتلاء من الله واختبار، ليظهر منكم من يغلِّب طاعته ومراده على مراد نفسه في حبه ماله وأولاده، ويتبيّن من يقدم محبوبات الله على محبوباته من مال وولد؛ لأن الولد مَجْبَنة؛ فلحبه يترك الجهاد، مبخلة، فلحبه يمسك المال، مَحزنةٌ ففقده داعية إلى الحزن، والمال سبب لكثير من الفتن والمعاصي والكبر والخيلاء والعجب، وما عند الله من أجر ومثوبة في الآخرة مع النعيم المقيم في جنات النعيم خير من الأموال والأولاد، فلا تقدموها على طاعة الله ومرضاته، ولا تضيعوا بسببها عبادته.

﴿٢٩﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

أيها المؤمنون: إذا اتقيتم ربكم بفعل طاعته وترك معصيته أكرمكم بنور في قلوبكم تعرفون به الحق فتتبعونه وتعرفون الباطل فتجتنبونه، وتميّزون بين الخير والشر بنفاذ البصيرة وقوة الإدراك وبراعة التمييز؛ لأن الفاجر مظلم البصيرة أعمى القلب، محجوب الفهم لرين المخالفة على قلبه، واستيلاء المرض على نفسه، وبالتقوى يمحو الله ما سلف من الذنوب، ويتجاوز عما تقدم، وزلت به القدم، مما يوجب الندم، ويستر الخطايا؛ لأنه جزيل العطايا، ففضله عظيم، وعطاؤه عميم، ونواله جسيم.

﴿٣٠﴾ ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

وتذكر - أيها الرسول - يوم تآمر عليك أهل الضلالة من قريش يريدون حبسك أو قتلك أو إخراجك من وطنك، والحبس وراء القضبان والإخراج من الأوطان وإعدام الإنسان هذه الثلاث هي من أشد النكال وأفظع العذاب وأمرِّ الأذى، فبها كاد كفار قريش للرسول ﷺ، وهم بهذا يعقدون حبل المكر في الخفاء، ويتآمرون في الظلماء، ولكن الله مبطل كيدهم محبط مكرهم، فهو خير من قدر فقهر، ومن إذا حارب غلب، فعدوه مخذول، وخصمه هالك مدحور.

﴿٣١﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

وإذا قرأت - يا محمد - على المشركين آيات الله من كتابه قالوا: سمعنا ما قرأت، وعرفنا ما تلوت، فما الجديد فيه وما العجيب فيما تلوت، هذا كلام الأولين وخرافات السابقين؛ كذبًا منهم وزورًا، ويقولون: نستطيع أن نقول مثله ونتكلم بما يشبهه، فهو كلام عادي، عتوًا منهم وصدودًا.

﴿٣٢﴾ ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

واذكر - أيها النبي - قول المشركين في دعائهم: يا ألله: إن كان هذا القرآن الذي أتى به محمد وحيًا منزلاً من عندك فارمنا بحجارة من السماء تهلكنا، يقولون ذلك استهزاءً واستبعادًا وتحديًا وتبجحًا، ثم قالوا: أو عذبنا بعذاب شديد من نوع آخر.. وهذا قول المستخف بعقوبة الله، الآمن من مكر الله، المُستهزئ بآيات الله، وقد جاءهم ما كانوا يوعدون.

﴿٣٣﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

ولم يكن الله ليهلكهم وأنت بين أظهرهم إكرامًا لك، فأنت سبب للأمان من عذاب الديان، والأمان الثاني استغفارهم وهو قولهم وهم يطوفون بالبيت: غفرانك، فأما الأمان الأول وهو وجود الرسول ﷺ فقد رفع عن كل مكذب بموته ﷺ، وبقي الاستغفار فمن أراد الأمن من غضب الجبار والبعد عن البوار، والنجاة من عذاب النار، وحسن المتاع في هذه الدار، من صحة وذرية ومال وأمطار، فعليه بالاستغفار.

٣٤ ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وما السبب الذي يمنع الله من تعذيبهم وقد استحقوه ولم لا يعذبهم على ما فعلوه، وهم يمنعون أهل الإسلام من دخول المسجد الحرام، ولا يصح لهم أن يكونوا أولياء الحرم والمؤتمنين على بيت الله وهم مشركون به مكذبون لرسول الله ﷺ، وإنما يستحق ولاية بيت الله من آمن بالله واتبع رسوله واهتدى بهداه وامتثل أمره واجتنب نهيه، فهذا الذي له حق الولاية وشرف الرعاية.

٣٥ ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

وما كان صلاة المشركين في الحرم إلا تصفيرًا وتصفيقًا، فليس فيها عبادة لله ولا طاعة مشروعة ولا سنة متبعة، وإنما ضلالة وجهالة وسفه، فذوقوا يا أعداء الله عذاب الله في الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة والعقوبات، وفي الآخرة بالنار وغضب الجبار؛ جزاءً على كفركم بالله ومحاربتكم أولياء الله.

٣٦ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

إن الكفار ينفقون أموالهم لمحاربة الله بمنع الناس من الدخول في دينه وإيذاء عباده والإفساد في أرضه، فهم ينفقونها ظانين أنها تنصرهم وتنفعهم، بينما هي ندم عليهم وخزي ونار وعار في الدنيا والآخرة، وسوف لا تنفعهم هذه الأموال، بل سوف يهزمون، وفي الآخرة إلى النار يُساقون، فكل من أنفق ماله في حرام وفواحش وآثام عُوقب بالمصائب المقدمة في الدنيا من أمراض وأوبئة وكدر وتنغيص، وفي الآخرة عذاب أليم على فعله الأثيم.

٣٧ ﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

والله – سبحانه – إنما فعل ذلك ليفرق بين أهل الحق وأهل الباطل، ويجعل أهل الباطل بأقوالهم القبيحة وأعمالهم الباطلة وعلومهم الفاسدة وأموالهم المحرمة مركومة متراكبة، ثم يرمي بهم وبها جميعًا في نار جهنم؛ فهم الخاسرون حقا الذين خسروا حياة النعيم المقيم، وأشدهم عذابًا.

٣٨ ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

قل- يا محمد – لمن كفر بالله: إنهم إذا تركوا الشرك ودخلوا في الإسلام فإن الله سوف يغفر لهم ما سلف من ذنوب وخطايا، وهذا من سعة رحمته وكريم عفوه – سبحانه – حيث عرض التوبة على أعدائه ترغيبًا لهم في دينه، ولكنهم إن عادوا إلى حرب المؤمنين والكفر برب العالمين فسنة الله معروفة، وطريقته بأعدائه معلومة، قد سبقت في الأمم الماضية، وظهرت في القرون الخالية من تدميرهم وإهلاكهم والتنكيل بهم وتعذيبهم.

٣٩ ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قاتلوا – أيها المسلمون – المشركين حتى تكسروا شوكتهم، وتفلوا سلاحهم، وتهزموا جمعهم، وحتى لا تبقى قوة تحارب الحق، ولا عصابة تصد عن الدين، ولتكون العبادة كلها لله، فلا يُعبد غيره ولا يحكم بغير شرعه، ولا يسيّر الحياة إلا الإسلام، فإذا انتهى أهل الباطل عن حرب الإسلام وألقوا السلاح وتركوا المعاداة بأي بأنواعها فإن الله عالم بعملهم مطلع على سعيهم إن صدقوا وآمنوا أثابهم، وإن أصرُّوا على الكفر عاقبهم، وفي هذا فتح باب الرَّجاء لكل ضال لعلّه يعود إلى رحمة ربه.

﴿٤٠﴾ ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

فإذا أبى الكفار الاستجابة وأعرضوا عن التوبة والإنابة، فالله معكم بنصره، وسوف يمحقهم؛ لأن من كان الله وليه فلا يخاف، فهو نعم المعين على النوائب، والوكيل في المهمات، والكافي في الأزمات، ونعم النصير على الأعداء، ونعم الظهير على الفئة الدهياء، تبارك اسمه، وتقدّست عظمته، فمن أراد ولايته، فليخلص له طاعته، ومن أحب نصره فليطع أمره.

﴿٤١﴾ ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

واعلموا - أيها المسلمون - أن أموال الغنيمة تقسم خمسة أقسام، فأربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين، وخمس لله ورسوله في مصالح المسلمين العامة، وسهم قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وسهم لليتامى، وسهم للفقراء، وسهم للمسافر المنقطع في سفره، يفعل هذه القسمة من كان مصدقًا بما أتى من عند الله مؤمنًا به، مؤمنًا بالقرآن الذي نَزَل على رسوله ﷺ في بدر، اليوم الذي فرّق الله به بين أوليائه وأعدائه يوم تواجه جمع المسلمين وجمع المشركين، والله على كل شيء قدير، ومن قدرته أنه نصركم مع قلتكم على الكفار مع كثرتهم، وأعزكم وأذلَّهم، وأمكنكم منهم أسرًا وقتلاً.

﴿٤٢﴾ ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وتذكروا يوم بدر يوم نزلتم بالجانب الأدنى من المدينة، والكفار نزلوا في الجانب الأبعد، وقافلة أبي سفيان أسفل من مكانكم الذي نزلتم به، ولو ضربتم بينكم موعدًا أنتم والكفار لاختلفتم في هذا الموعد، ولما تَمَّ هذا اللقاء على هذا الترتيب الذي أراده الله، ولكن الله جمع بينكم على غير ميعاد؛ ليحقق لكم ما قدّر من نصر على الكفار، ويخذلهم ويخزيهم، وهذا التقدير منه - سبحانه - ليكفر من كفر بعد قيام البرهان عليه، ويؤمن من آمن بعد وضوح الحجة له، والله يسمع الأقوال سرَّها وجهرها، ويعلم الأفعال خافيها وعلانيتها، فبسمعه وعلمه أحسن التقدير وأتقن القضاء والتدبير، وعلم العواقب والمصير، فنصر من شاء بعلم، وخذَل من أراد بحكمة.

﴿٤٣﴾ ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

ومن نِعَمِ الله عليك -أيها النبي- أن الله أراكم جيش المشركين قبل معركة بدر في المنام وهم قليلون، فتشجعتم على قتالهم وتحمستم للقائهم، ولو أن الله أراكهم في المنام كثيرين وأخبرت المسلمين بذلك لاختلفوا وترددوا في قتالهم، ولكن الله سلم من الفشل، وعصم من التخاذل، وأيد بنصره، وأنزل جنده، ولطف تأييده، فحصل الظفر، والله عليم بما أخفت القلوب وأكنَّت الصدور، فصار قضاؤه عن علم، وتقديره عن حكمة، فقضى كل أمر بما يناسبه، ووضع كل شيء موضعه.

﴿٤٤﴾ ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

وتذكروا يوم التقيتم في بدر، فخُيِّل إليكم أن جيش الكفار قليل بالرؤية البصرية، فثبتم وتشجعتم على القتال، - وأيضًا - خُيِّل إلى المشركين أن عددكم أقلّ من الواقع فتحمسوا لقتالكم، ولو رأوكم كثيرًا لنكصوا؛ لأن الله يريد أن يتم القتال ويحصل النزال وتقوم المعركة لينصر أولياءه ويهزم أعداءه، ويعز دينه، ويخذل الباطل وأهله، فسبحان من

إذا أراد شيئًا سهَّل أسبابه وهيأ وسائله؛ ليتم أمره وينفذ قضاؤه، وإليه وحده تعود عواقب الأمور ومصائر الأعمال؛ فيجازي كلاً بما فعل من حسن وسوء.

﴿٤٥﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أيها المصدقون بما أنزل الله وبرسوله وبوعده ووعيده، إذا لقيتم الكفار في ساحة القتال، وقابلتموهم يوم النزال فالثبات الثبات والصبر الصبر؛ لينجز الله لكم ما وعد من النصر، واستعينوا على ذلك بكثرة ذكر الله، فإنه نعم المعين والزاد، وأقوى سلاح وعتاد، وأفضل عدة للجهاد، فمع ذِكْرِ الله تنزل الرحمات، وتكشف الكربات، وتغمر البركات، فبالصبر والذكر والشكر يحصل الفلاح الأكبر، والفوز الأعظم، وإنما خصَّ الذكر في هذا الموطن؛ لأن الإنسان يذكر حبيبه وقت الأزمات، وحبيب المؤمنين الأعظم هو الله - جل في علاه - وأفضل عمل هو الذكر، وأشق موقف هو الجهاد، فناسبه الذكر لسهولته وجلالته وحسن عوائده وجميل فوائده، ولو لم يكن للذكر إلا هذا لكفى، كيف والذاكرون هم السابقون المفرِّدون الفائزون بخيري الدنيا والآخرة.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

وعليكم بطاعة الله ورسوله بامتثال الأمر واجتناب النهي، ولا تختلفوا فتضعف قوتكم وتذهب هيبتكم ويفوتكم الظفر، وتحرموا النصر، وعليكم بالصبر على المكاره والتحمل عند الشدائد، فإن الله يؤيد الصابرين بعونه ويقويهم بتأييده، ويكرمهم بنصره. وفي الآية أن الطاعة والجماعة سبب للقوة وطريق للفوز والنصر، وأن الخلاف والوهن سبب للفشل والهزيمة.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

واحذروا - أيها المؤمنون - أن تكونوا كالمشركين الذين خرجوا من مكة إلى بدر فخرًا وتكبرًا وتجبرًا وعتوًا؛ يراؤون الناس بقوتهم لينالوا مدحهم ويمنعوا الناس من الإسلام، والله عالم بكل ما فعلوه، مُطّلِع على جميع ما صنعوه، قد أحصى أفعالهم وأقوالهم في كتاب لينالوا أشد العقاب، ويذوقوا أقوى العذاب.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

وتذكروا يوم حسّن الشيطان لعبدة الأوثان قتال أهل الإيمان، وضمن لهم النصر مكرًا منه وخديعة، وكثَّر لهم عددهم وقوتهم، وزعم أنه سوف يجيرهم من الأعداء وينصرهم وقت اللقاء، فلما تواجه المؤمنون والمشركون وأبصر كل منهم عدوه، نكث ما عاهدهم عليه، وأخلف ما وعدهم به من النصر، وفرَّ هاربًا وشرد خائبًا، وقال: إني أتخلّى عن نصركم ولا أستطيع جواركم، إني أرى من الملائكة الغلاظ الشداد الأقوياء ما لا يستطاع لقتالهم، ولا يقدر على نزالهم، إني أخاف الله أن يحيق بي عذابه، وأن يهلكني بعقابه، والله شديد العقاب لا يُغالب، قوي العذاب لا يُحارب. وفي الآية أن طريق الشيطان هو تحسين الخطأ وتزيين الضلالة، وأنه إذا ورَّط العبد تخلّى عنه، فالواجب الحذر من تلبيسه والحيطة من تدليسه.

﴿٤٩﴾ ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

وتذكروا حين يقول المنافقون والشاكون في الإيمان: انخدع هؤلاء المؤمنون بدينهم واغتروا وظنوا أنهم سوف ينتصرون على الناس وهم أذلّة قلة ضعفاء، فأخبر - سبحانه - أن من اعتمد على الله وتوكل عليه وفوَّض أمره إليه نصره وأيده وأعزه ومكَّن له؛ فهزم عدوّه ولو كان أقل منه وأضعف؛ لأن الله عزيز الجانب لا يُغالب، يعز من انتصر به ويؤيد من توكل عليه، حكيم يدبّر الأمور على أحسن تدبير وأتقن طريقة، فقوته معها حكمة عاصمة.

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

ولو ترى - أيها المسلم - مشهد الكفار في سكرات الموت والملائكة يقبضون أرواحهم بعنف وينزعونها بقوة ويضربون وجوههم وظهورهم بمقامع من حديد؛ تعذيبًا وإذلالاً لهم وتنكيلاً بهم، ويقولون تحقيرًا لهم: ذوقوا عذاب السعير المحرقة وجهنم المتقدة؛ جزاءً لفعلكم الأثيم، وعملكم القبيح من الكفر والتكذيب.

﴿٥١﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

ذلك التنكيل بالكفار من ضرب الوجوه والأدبار، بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم رسول الله ومحاربتهم أولياء الله والصد عن منهج الله، والله لم يظلمهم بأن عذبهم بلا ذنب، بل هم مستحقون لهذا العذاب، والله -عز وجل- لا يظلم العباد، بل أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأوضح لهم المحجة، ولم يتركهم هملاً؛ بل بين لهم الحق والباطل، ثم جازاهم بعدل.

﴿٥٢﴾ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

عادة هؤلاء المشركين كعادة قوم فرعون والذين من قبلهم، كلهم كفروا بآيات الله وكذبوا رسل الله، وسنة الله في هؤلاء كسنته في من قبلهم يعاقبهم بذنوبهم ويجازيهم بأفعالهم، فالله قوي بأسه، شديد عقابه، أليم عذابه، وهنا كفر العقيدة والتوحيد، فجاء بلفظ الجلالة (الله)، وسوف يأتي كفر النعم والأيادي ليأتي بلفظ (الرب)، وإنما ذكر فرعون وقومه لاشتهاره بالاستكبار والإصرار، ولادِّعائه الألوهية قاتله الله، ولم يسبقه ولم يلحقه بهذا القول الأثيم القبيح أحد.

﴿٥٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

ذلك العقاب الذي أنزله بهم بسبب أن سنة الله - سبحانه - أنه لا يبدل النعمة والمنحة بالمحنة إلا إذا بدل هؤلاء الأقوام أعمالهم من حسن إلى سيئ، ومن صالح إلى قبيح، ومن طاعة إلى معصية، حينها يسلب الله منهم النعم، ويصب عليهم النقم، ويبدلهم بالعز ذلاً، وبالقوة ضعفًا، وبالغنى فقرًا، وبالأمن خوفًا؛ لأنه - سبحانه - أحاط سمعه وعلمه بكل شيء، فلا يؤدب إلا من عصى، ولا يعاقب إلا من أبى، فبسمعه سمع الأقوال حسنها وسيئها، وبعلمه اطلع على الأعمال والأحوال طيبها وخبيثها، فوقع جزاؤه بعدل، ونزلت رحمته بفضل.

﴿٥٤﴾ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

عادة هؤلاء المشركين كعادة قوم فرعون ومن سبقهم، طريقتهم في التكذيب واحدة، فهم كفروا بحجج ربهم الذي خلقهم ورزقهم ورباهم بالنعم فأبادهم الله بسبب عصيانهم، وأغرق الله فرعون ومن معه، وكل هؤلاء الكفار كانوا ظالمين لأنفسهم بالعصيان، فاستحقوا الخسران، فلم يهلكوا إلا بعدل من الله على صنيعهم.

﴿٥٥﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

إن شر ما دب على وجه الأرض هم الكفار الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله، فهم لا يصدّقون بوحدانية الله ولا يفردونه بالألوهية، ولا يخلصون له الطاعة، فالكافر شرٌّ من البهيمة؛ لأنه خلق ليعبد، وهي لم تكلف بعبادة فصار أضل منها.

﴿٥٦﴾ ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾

هؤلاء القوم من يهود بني قريظة سبق أن عاقدتهم وعاهدتهم - يا محمد - على عدم إعانة المشركين فنقضوا العقد ونكثوا العهد مرات كثيرة، وهم لا يتقون الله فيما عاهدوا عليه ولا يخافون عقاب من غدر، فالجاهل بعظمة الله يتمردّ على ربه ويعصيه جل في علاه.

٥٧ ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

فإذا لقيتهم في المعركة فنكِّل بهم وخوّف المشركين من ورائهم ليخافوك ويرهبوك، ويكفوا عن نقض العهود؛ لعلهم يعتبرون بمن فُتِكَ بِهِمْ فلا ينقضون العهد، فإذا أرهبت كفار قريش وخوفتهم خافك يهود المدينة، فلابد للحق من قوة تحميه، ومن صولة ترعاه، ومن دولة تذب عنه؛ ليكون عزيز الجناب، مقدّس العتبات.

٥٨ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

فإذا تيقنت أن عدوك يريد خيانتك بنقض ما بينك وبينه من عهد فاطرح إليه عهده علانية حتى تصير أنت وإياه متساويين في العلم بنقض العهد؛ لأنك لو نقضته سرًّا لاتهموك بالغدر، ولو بقيت صارَ الوفاء فقط من جانبك، فإذا ظهرت لك علامات الخيانة فاخلع العهود علنًا وحارب جهرًا؛ لأن الله لا يحب من خان الأمانة، ونقض الديانة بل يحب الصادق الأمين الوفي.

٥٩ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

ولا يظن من نجا من أعدائك من القتل أنهم أفلتوا من عقاب الله وأخذه، فهم لا يعجزون الله في إدراكهم بل سوف يأخذهم في الوقت المناسب؛ لأن اليهود لمَّا نجوا مما أصاب المشركين يوم بدر ظنوا أنهم أعجزوا ربهم في أخذهم وهلاكهم، فأخبرهم أن لهم أجلاً معلومًا وللكافرين أمثالهم.

٦٠ ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

وأعدوا - أيها المسلمون - لأعدائكم كل أسباب القوة المادية والمعنوية من سلاح وعتاد ومال وعلم؛ لتخوّفوا بهذه القوة كل عدو لله ولكم من مشركين وملاحدة وأهل كتاب وكل كافر؛ ليُرهَبَ جانب الإسلام، ويُعَزَّ أهله، وتُقَدَّسَ تعاليمه، فحق بلا قوة نهب مشاع، وكيان بلا عزة عرض مضاع، والضعيف مطموع فيه محتقر، والذليل مهان مبتذل، فبذل القوة للإسلام أمر مطلوب من خيل مربوطة، وسلاح معد، وأموال مدخرة، وجيوش مدربة، ومصانع قائمة، وعقول منتجة، وهذه القوة تخوفون بها أعداءكم المعروفين ومن لا تعرفون عداوتهم، فكل مجد لا يراق على جوانب عظمته دم التضحية فإلى سقوط، وما تبذلونه في سبيل الله من مال أو جهد فهو محفوظ لكم عنده، سوف يثيبكم عليه في الدنيا من العز والنصر والمتاع الحسن، وفي الآخرة من النعيم المقيم والمقام الكريم، ولا ينقص من ثوابه شيء، بل الثواب في زيادة تفضلاً من الله وكرمًا.

٦١ ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

وإن مال الكفار للمصالحة والسلم فمل إلى ذلك، صالحهم فيما فيه خير للمسلمين ودفع للحروب، وثق بربك فيما عاهدت، وتوكل عليه فيما عاقدت، فإنه سوف يؤمنك مما تخاف ويحميك مما تحذر؛ لأنه سامع الأقوال، عالم الأحوال، المطلع على النيات، العليم بالخفيات، يعلم من وفّى ومن غدر، ومن صدق ومن خان.

٦٢ ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وإن كان لهم نية في الغدر بك فالله يكفيك كيدهم ويحفظك من مكرهم، فإن الله قد أعانك بنصره وقواك بالمؤمنين من أتباعك، فلما توكل الرسول ﷺ على ربه كان معه فنصره على أعدائه، ثم جعل الله لرسوله جندًا من المؤمنين يقاتلون معه، فالصادق مع ربه منصور، والغادر مدحور، والصابر على الجهاد والتضحية مشكور مأجور.

٦٣ ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

وآخى بين قلوب المسلمين بعدما كانت متباغضة قبل الإسلام؛ فصاروا إخوة بالإيمان، متحابين متوادِّين، لو أنفقت جميع ما في الأرض من كنوز لتجمع هذه القلوب على المحبة ما اجتمعت؛ لأنه لا يجمع القلوب إلا الإيمان بعلام

الغيوب؛ لأنه بغيره تصبح أنانية متحزبة تغلب عليها العصبية والطمع وحب الذات والميل للقبيلة والأسرة، لكن الله بفضله ورحمته جمع هذه القلوب؛ فله الحمد والمنة؛ لأنه عزيز ينفذ أمره بلا معارض، ويتم مراده بلا مغالب، حكيم فيما فعل، يوقع القضاء بإتقان وإحسان.

٦٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

أيها النبي: الله يحفظك من شر أعدائك ويحميك من كيدهم، ويتولى من يتبعك من المؤمنين الصادقين، فيوفقهم ويرعاهم، فمن كان الله حسبه نصره بلا عشيرة، وقواه بلا مال، وأعزه بلا جاه.

٦٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾

أيها النبي: شجع المؤمنين على قتال أعدائهم المحاربين من الكفار، وحثهم على المصابرة والثبات في المعركة، وبشرهم أن عشرين منهم صابرين يغلبون مئتين من أعدائهم، وإذا وُجدَ مئة مقاتل صابر غلبوا ألف مقاتل كافر؛ لأن الكافر لا فهم عنده في أسرار الحرب ولا فقه عنده في مقاصدها؛ لأنه ترك السبب الأعظم في نيل النصر وهو الإيمان بالله فأظلمت بصيرته، وحقت هزيمته.

٦٦ ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

فاليوم يسر الله عليكم ورخص لكم بسبب ضعف الواحد منكم عن قتال العشرة من الأعداء، فالواجب عليكم أن يصبر الواحد أمام الاثنين، فإذا وُجدَ منكم مئة رجل صابر محتسب غلبوا -بإذن الله- مئتين من الأعداء، وألف منهم يهزمون ألفين من الأعداء بحول الله وقوته؛ لأن الله يؤيد الصابرين وينصرهم على عدوهم. وفي الآية عدم مخاطرة أهل الإسلام إذا قل عددهم عن العدد الكثير المدجج من الأعداء. واستخدام الحيلة في عدم المواجهة حتى يقوى جانب جيش المسلمين. وأن القوة ملازمة للتوكل على الله تعالى.

٦٧ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

لا يحل لنبي أن يتخذ أسرى يأخذ منهم الفدية حتى يبالغ في قتل أعدائه من الكفار المحاربين الصادين عن سبيل الله المقاتلين لعباد الله؛ حتى يقوى جانب دولة الإسلام وتُهاب وتُحترَم، وأنتم أيها المسلمون تريدون متاع الحياة الدنيا بما يحصل لكم من فدية الأسرى، والله يريد لكم جنات النعيم والفوز العظيم بالجهاد في سبيل الله والذب عن دينه، والله قوي غالب على أمره، ينصر من نصره، ويمحق من حاربه، حكيم في تقديره وتدبيره، فبعزته ينصركم في القتال، وبحكمته يعلمكم أحكامه من القتل والأسر والغنيمة والصلح وغيرها.

٦٨ ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

لولا أن الله كتب أن لا يؤاخذ المجتهد المخطئ لأصابكم بعذاب شديد بسبب أخذكم الفداء من أسرى بدر مكان قتلهم؛ لأنهم حاربوا الله ورسوله، وخرجوا للصد عن سبيله، وقد يكون الكتاب ما سبق في علم الله وقضائه من المغفرة لمن حضر بدرًا، فبذلك رحمهم الله، ولم يؤاخذهم .

٦٩ ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

فكلوا - أيها المؤمنون - من الغنائم التي أباحها الله لكم، ومنها فداء الأسرى، فإنها من الحلال الطيب، لا حرمة فيها ولا خبث، واتقوا بامتثال ما أمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، والله كثير المغفرة لمن أذنب وتاب، واسع الرحمة لمن عاد إلى الله وأناب، فمن مغفرته أنه يتجاوز عمن أساء، ومن رحمته أنه يوفق من شاء من عباده لمرضاته.

﴿٧٠﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

أيها النبي: قل لأسرى بدر إن يعلم الله في قلوبكم حبًا للإيمان ورغبةً وتوجهًا إليه واستعدادًا لقبول الحق يعطيكم الله من فضله أعظم مما دفعتم من الفداء للمسلمين، ويرزقكم خيرًا كثيرًا، وفي الآخرة يمنحكم أجرًا عظيمًا ومغفرةً واسعة لذنوبكم؛ لأنه - سبحانه - يغفر الذنب العظيم، إذ هو الرحمن الرحيم، وسعت رحمته كل شيء، وعم فضله كل مخلوق.

﴿٧١﴾ ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وإن كان الأسرى فعلوا ما فعلوا من الفداء والقول اللين لك خداعًا منهم ومكرًا فقد خدعوا من قبل وخانوا، فمكنك الله منهم في بدر، ونصرك عليهم، والله عالم بالسرائر، مطلع على ما في الضمائر، حكيم في أمره وخلقه، وانظر كيف لم يقابل الخيانة بخيانة؛ لأنه منزّه عن ذلك، وإنما ذكر التمكين منهم؛ لأنه فعل كمالٍ يدل على العلم والحكمة.

﴿٧٢﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

إن الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وهاجروا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وهم المهاجرون والذين آووهم ونصروهم، وأكرموا نزلهم، وواسوهم بأموالهم وأنفسهم وهم الأنصار، فهؤلاء أعوان إخوان النصرة والجهاد والبر والتقوى، أما الذين آمنوا لكنهم مكثوا في أرض الكفر ولم يهاجروا منها فليس بينكم وبينهم إخاء ولا مودة حتى يتركوا بلاد الكفر ويهاجروا إلى بلاد الإسلام، ولكن إذا طلبوا النصرة منكم على الكفار لدفع أذاهم فأعينوهم لرفع الاضطهاد عنهم، إلا إذا كانوا بين قوم معاهدين لكم فاحترموا العهد ولا تناصروا المسلمين على الكفار المعاهدين، وهم معهم في أرضهم، والله عالم بالسر والجهر، خبير بالخافي والمعلن، محيط بكل شيء.

﴿٧٣﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴾

والذين كفروا بالله بعضهم يناصر ويوالي بعضًا، فهم لا يناصرون المؤمنين ولا يناصرهم المؤمنون، إن لم تفعلوا هذا من موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين وتمتثلوا أمر رب العالمين تكن فتنة عظيمة، فيتقوى أهل الكفر على أهل الإسلام، ويوهن جانب الدين ويتحالف الأعداء على المؤمنين، ويقع الفساد بانتصار أهل الكفر والإلحاد.

﴿٧٤﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾

والذين آمنوا بالله ورسوله، وهاجروا من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، وجاهدوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فالذين آووهم ونصروهم من أهل المدينة وهم الأنصار هؤلاء الصادقون في إيمانهم المخلصون لربهم، سوف يغفر الله ذنوبهم ويرزقهم رزقًا طيبًا مباركًا كريمًا في جنات النعيم، مع قرة العين وبهجة النفس وراحة البال.

﴿٧٥﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾

والذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا من ديار الكفر إلى ديار الإسلام وجاهدوا مع أهل الإيمان في سبيل الديان، فهؤلاء منكم في الإخاء والنصرة والموالاة، وأهل القرابة من المؤمنين بعضهم أولى ببعض في الميراث من المهاجرين في حكم الشريعة؛ لأن الله يعلم كل شيء فيه صلاح العباد، وإيفاء الحقوق لأهلها، ومنها المواريث، فيقدرها بقدرها لمستحقها لعلمه وحكمته سبحانه.

مدنية

سورة التوبة

ترتيبها ٩

آياتها ١٢٩

﴿١﴾ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

الله يبرأ ورسوله من المشركين، ويسقط عهدهم مع المسلمين؛ لأنهم نقضوا الميثاق مع رب العالمين.

﴿٢﴾ ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

سيروا في الأرض حيث شئتم مدة أربعة أشهر، من وقت إعلان البراءة عاشر ذي الحجة سنة تسع، وتيقنوا - أيها المشركون - أنكم، لن تفوتوا الله بالهرب، ولن تفلتوا من عقابه، وأن الله مذل الكفار بالخزي والعار في هذه الدار، ثم بعذاب النار.

﴿٣﴾ ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

وإعلان ظاهر عام من الله ورسوله إلى جميع الناس يوم تمام أعمال الحج، وهو يوم النحر بالبراءة من عهود المشركين، فإن تاب الكفار بالدخول في الإسلام وترك عبادة الأصنام فهو خير لهم في الدنيا والآخرة من الاستمرار على الشرك، وإن أعرضوا عن الإيمان وطاعة الرحمن، فتيقنوا أنكم في قبضة الله لن تفلتوا من عذابه، ولن تفوتوا من عقابه، وأخبر -أيها النبي- الكفار بعذاب أليم في دار الجحيم على فعلهم الأثيم.

﴿٤﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

ويستثنى من مدة تأجيل المشركين إلى مدة أشهر من عاهدتم ولم ينقضوا شرطًا من شروط المعاهدة، ولم يعاونوا الأعداء على حربكم، فأكملوا مدة العهد معهم كما حصل الاتفاق إلى اكتمال زمنه؛ لأن الله يحب من اتقاه في الوفاء بالعهود، والتزام العقود، وعدم نقضها.

﴿٥﴾ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فإذا انقضت الأربعة الأشهر وهي مدة المهلة، فقاتلوا الكفار في أي مكان لقيتموهم في الحل والحرم، وخذوهم أسرى، وامنعوهم من التنقل في ديار الإسلام إلا بإذن، وضيقوا عليهم في تحركاتهم، وترصدوهم وتعقبوهم في كل مكان حتى تقبضوا عليهم، فإن تابوا من الكفر وأسلموا وأقاموا الصلاة المكتوبة، وأدوا الزكاة الواجبة فاتركوهم ولا تؤذوهم، فالإسلام حقن دماءهم وأعطاهم حريتهم، والله غفور لمن تاب، رحيم بمن أناب، يهدم بالإسلام ما قبله.

٦ ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

وإذا سأل أحد من المشركين منك الأمان فأمنه حتى تُسمعه ما تيسّر من القرآن ويتفهمه، ثم أوصله المكان الذي يأمن فيه؛ لأن الكفار لا علم لهم بما ينفعهم وما فيه خيرهم، فليس عندهم من حسن الإدراك وجميل التمييز ما يحملهم على اعتناق الإسلام، وانظر للطف الرحمن حتى بعبدة الأوثان عند طلبهم للأمان.

٧ ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

لن يكون للمشركين الغادرين عهد عند الله ورسوله؛ لأنهم نقضوا العهد، لكن مَنْ عاهدتم يوم الحديبية قريبًا من المسجد الحرام فأوفوا لهم عهدهم ما داموا مقيمين عليه ولم ينقضوه، إن الله يحب من اتقاه بالوفاء بما التزمه من عهود، وإمضاء عقود.

٨ ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

كيف تلتزمون عهداً مع المشركين وهم لو غلبوكم وتمكنوا منكم لن يراعوا فيكم حِلْفًا ولا قرابة ولا عهدًا، فلن يمنعهم شيء عن أذاكم، يكسبون رضاكم بكلام كالعسل، وقلوبهم كالأسل، حقدًا وعداوةً وبغضًا، وكثير منهم خارجون عن الحق، ناقضون للميثاق يخونون العهود.

٩ ﴿ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

استعاضوا بآيات القرآن عِوَضًا حقيرًا تافهًا من عرض الدنيا الزائل، فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام، بئس هذا العمل الذي عملوه، والجرم الذي فعلوه.

١٠ ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾

لا يراعون لمؤمن حِلْفًا أو قرابة أو عهدًا، وهم المتجاوزون لحدود الله بالغدر ونقض العهد ونكث الميثاق.

١١ ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

فإن تابوا من الكفر وأسلموا وصلوا معكم، وأدوا زكاة أموالهم، فإخوانكم في الإسلام، لهم ما لَكُم وعليهم ما عليكم، والله يبيّن آياته لمن عنده فَهْم للحقائق وفقه في مراد الشرع.

١٢ ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾

فإذا نقض المشركون العهود الموثقة من بعد الاتفاق معكم، وعابوا الدين، وسَبُّوا القرآن والرسول ﷺ؛ فقاتلوا زعماءهم؛ لأنهم لا عهد لهم ولا ميثاق؛ علّهم أن ينتهوا عن الكفر وعن قتال أهل الإيمان، فليس لهم إلا التوبة أو القتال.

١٣ ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ما لكم لا تقاتلون هؤلاء الكفار الذين نقضوا عهودهم معكم، وعزموا على إخراج الرسول ﷺ من مكة، وهم الذين سبقوا إلى قتالكم وبادروكم بالأذى من فجر الرسالة وأول الدعوة، أتخافون المشركين أيها المسلمون؟ فالله وحده أولى بالخوف، فبيده كل شيء إن كنتم مصدقين بوعده ووعيده وكتابه ورسوله، فأخلصوا له الخشية وحده.

١٤ ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾

قاتلوا - أيها المؤمنون - الكفار يعذبهم الله بأيديكم ويذلهم بالأسر والهزيمة، ويرزقكم النصر عليهم، ويشف صدوركم بالنصر عليهم من الغم والحزن الذي لحق بها من أذى هؤلاء الكفار وكيدهم، فأنتم افعلوا السبب وعلى الله العواقب الحميدة.

﴿١٥﴾ ﴿ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ويذهب الله بقتل الكفار ما في قلوب المؤمنين من غيظ على أعداء الله، ومن عاد إلى الله من هؤلاء المحاربين فالله واسع يتفضل على من أراد من العباد بقبول التوبة منهم بصدق التائب من عدمه، حكيم في وضع فضله فيمن يشاء، وهداية من أراد أو ضلاله.

﴿١٦﴾ ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

لا تظنوا - أيها المؤمنون - أن يدعكم الله بلا امتحان؛ ليظهر علمه فيكم، فيتبين المخلص في جهاده لوجه ربه، ولم يأخذ غير الله ورسوله وليًّا يخلص له الود والمحبة، والله خبير بجميع الأعمال ظاهرها وباطنها، فيحصيها لكم ويوفيكم إياها يوم لقائه.

﴿١٧﴾ ﴿ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾

ليس من شأن الكفار عمارة بيوت الله وهم يظهرون كفرهم ويحاربون من أجله، والله سوف يبطل ما عملوه ويمحق ما كسبوه، ومصيرهم النار في خلود دائم وعذاب مستمر.

﴿١٨﴾ ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾

لا يعتني بالمساجد وعمارتها بالعبادة والبناء إلا من آمن بربه وأطاع رسوله ﷺ وأقام الصلاة المكتوبة، وأدى الزكاة المفروضة، ولم يخف غير ربه، ولم تأخذه في طاعة مولاه لومة لائم، فهذا تُرجى له الهداية إلى كل ما يُرضي الله من عمارة المساجد وفعل الخيرات.

﴿١٩﴾ ﴿ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أجعلتم - أيها المشركون - سقاية الحجيج وبناء المسجد الحرام مساويًا للإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، وهما لا يستويان في الأجر والمثوبة؛ لأن ذاك العمل صدر عن كافر حبط عمله، وهذا مؤمن رضي الله سعيه، فلا فضل لعمل بلا إيمان، والله لا يوفق كل كافر للخير، ولا يرشد كل فاجر لطريق الرشد، فلا يهتدي لما ينفعه.

﴿٢٠﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾

المؤمنون بالله والمهاجرون والمجاهدون في سبيله بالأموال والأنفس هم الأعلى رتبة، والأرفع منزلة، عندالله، وهم الظافرون بكل مطلوب، الحاصلون على كل مرغوب فيه من الفضل والرضوان وسكنى الجنان.

﴿٢١﴾ ﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٞ ﴾

يبشرهم ربهم -عز وجل- برحمة منه سابغة تمحو ذنوبهم، ورضوان كامل تام لا يسخط عليهم بعده أبدًا، وهو أجلُّ النعيم، ثم يدخلهم جنات في نعيم دائم، وقرة عين مستمرة.

﴿٢٢﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

وهؤلاء المؤمنون مخلدون في جنات النعيم أبدًا بلا زوال ولا انتقال، والله عنده لأهل طاعته ثواب عظيم، وفضل عميم في جنات النعيم.

﴿٢٣﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أيها المؤمنون: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أحبابًا وأنصارًا توالونهم وتودونهم إذا اختاروا الكفر دينًا على الإيمان، ومن يتخذهم أولياءَ وأحبابًا من دون الله فأولئك هم المتجاوزون الحد في العصيان، والظالمون لأنفسهم بمعاداة الرحمن.

﴿٢٤﴾ ﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

قل - أيها النبي - لمن آثر الدنيا على الآخرة: إذا كان الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال المكتسبة والتجارة التي تخافون عدم رواجها، والبيوت طيبة السكنى، أحبَّ إليكم من طاعة الله والهجرة في سبيله والجهاد لإعلاء كلمته فانتظروا عقوبة الجبار على سوء الاختيار، وتقديم الدنيء الرخيص على الغالي النفيس، وهذه الثمان المذكورات هي مشتهيات النفوس في الدنيا ومحبوبات القلوب، فإذا قُدِّمت على مراد الله فهو الغبن والخسار والنقص والبوار، والله لا يوفق من خرج عن طاعته، ولا يرشد من رغب عن عبادته.

﴿٢٥﴾ ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾

لقد نصركم الله - أيها المسلمون - على المشركين في غزوات عديدة ومعارك كثيرة مع ضعفكم وقلَّتكم وقوة أعدائكم وكثرتهم، ولكن كان الله معكم، وتذكروا يوم نصركم الله في غزوة حنين حين أعجبتكم كثرة جيشكم وقلتم لن نغلب - والله- من قلة، ولكن لما جَدَّ الجدّ هربتم منهزمين، وتركتم الرسول ﷺ مع نفرٍ من أصحابه؛ ليريكم الله أن النصر من عنده لا بكثرة عدد ولا بقوة سلاح.

﴿٢٦﴾ ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

ثم أنزل الله الطمأنينة على الرسول الكريم ﷺ، وعلى أتباعه من المؤمنين، فسكنت قلوبهم وعادوا للمعركة وثبتوا أمام العدو، وأنزل الله الملائكة يقاتلون معهم، ونزل النصر، وحصل الظفر، ووقع القتل والأسر في أهل الكفر؛ جزاءً لهم على حربهم لله ولرسوله، ونكالاً بهم على قبح أعمالهم.

﴿٢٧﴾ ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

وبعد التنكيل بالكفار في الحرب يمن الله بالتوبة على من يشاء من عباده إذا أسلموا وأنابوا إليه؛ لأنّ الغفران يمحو ما سلف من الذنوب وكان، ويتغمد من عبده بالرحمة؛ لأنه الرحيم الرحمن.

﴿٢٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾

أيها المؤمنون: إنما المشركون أنجاس الذات، خبثاء الصفات، معتقدهم قبيح لشركهم وظلمهم، وأجسامهم نجسة لعدم غُسْلهم من الجنابة وعدم وضوئهم، فلا يجوز لهم دخول الحرم المكي بعد العام التاسع الذي أعلن فيه أبو بكر البراءة من المشركين، فلا تسمحوا - أيها المؤمنون - للكفار بدخول الحرم، وإن خشيتم الفقر - أيها المسلمون - بانقطاع تجارة المشركين عنكم، فسوف يعوضكم الله من عطائه الواسع إن شاء أن يغنيكم، وقد حصل هذا الغنى بما فتح الله على المسلمين بعد الغزوات والمعارك، والله - عز وجلَّ - عليم بمصالح العباد، وما فيه لهم من الصلاح والفساد، حكيم في تدبير الأمور، فبالعلم يختار الأصلح، وبالحكمة يقضي الأنفع.

٢٩ ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

أيها المؤمنون: قاتلوا الكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، فهم لا يقرون بالعبودية لله، ولا يعترفون بالبعث بعد الموت، ولا يُحَرِّمون الحرام الذي أمر الله بتحريمه كالزنا والربا والخمر والميتة ونحوها، ولا يعتقدون بالإسلام ولا يتحاكمون إليه، من اليهود والنصارى؛ فيقاتلون حتى يلتزموا الجزيةَ عن سَعَةٍ، بحيث يكونون خاضعين لحكم الإسلام منقادين لكم، يباشرون الجزية بأنفسهم، مقهورين بصولة الدولة في ذلّ ومسكنة.

٣٠ ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

قالت اليهود كذبًا وزورًا: عزير ابن الله، وقالت النصارى كذبًا وزورًا: عيسى ابن الله، وهو قول بلا دليل، وادعاء بلا برهان، وهم شابهوا بهذا الافتراء دعوى المشركين من أن اللات والعزى ومناة بنات، والملائكة بنات الله!! لعنهم الله وأهلكهم وأخزاهم، كيف يصرفون عن الحق مع قيام الشواهد على وحدانية الله وأنه لم يلد ولم يولد.

٣١ ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

جعل اليهود علماءهم وجعل النصارى عبَّادهم آلهة من دون الله، يحلون لهم الحرام فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه، وجعل النصارى عيسى ابن مريم إلهًا معبودًا من دون الله، ولم يأمرهم الله بذلك، بل أمرهم أن يعبدوه وحده لا شريك له، تنزَّه الله وتقدَّس عن شركهم؛ حيث نسبوا إليه البنين، وجعلوا معه آلهة أخرى، وهو أحد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

٣٢ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

يقصد اليهود والنصارى وسائر المشركين أن يطعنوا في الإسلام، وفي الرسول ﷺ بأقوالهم الباطلة وافتراءاتهم الكاذبة؛ ظنًا منهم أنهم سوف يحجبون هداية القرآن والإيمان عن الناس، ولكن الله - جل في علاه - تولى حفظ هذا الدين، فسوف ينصره ويعليه ويؤيد رسوله ﷺ على رغم أنوف الكفار، ولهم الذلة والصغار.

٣٣ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

الله وحده الذي أرسل رسوله بدين الإسلام، المشتمل على العلم النافع والعمل الصالح الدال على كل هدى، المحذر من كل ردى؛ ليجعله عاليًا على كل الأديان، مهيمنًا على سائر الملل، غالبًا عليها بالحجة والبرهان، والعدل والإحسان.

٣٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

أيها المؤمنون: إن كثيرًا من علماء اليهود وعبّاد النصارى يأخذون أموال الناس بالحيلة والدجل والتلبيس من الرُّشَى وأثمان الأحكام الباطلة، ويمنعون أتباعهم من الدخول في الإسلام، والذين يَدَّخِرون الذهب والفضة ولا يؤدون زكاتها ولا يتصدقون منها، فبشرهم - تهكمًا بهم - بعذاب لا يُطاق، شديد موجع على فعلهم المشين.

٣٥ ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

يوم يُوقَد على الذهب والفضة في نار جهنم، ثم تُحْرَق بها الجباه التي أشاحوا بها عن السائل، والجُنُوب التي أعرضوا بها وقت الطلب، والظهور التي أعطوها طالب الحاجة تكبرًا وبخلاً، ويُقال لهم: هذا عاقبة ما كنزتم من الأموال ذوقوه حسرةً وويلاً وأغلالاً وأنكالاً؛ لأنكم منعتم حقه.

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

عدد شهور السنة في علم الله وتقديره - سبحانه - اثنا عشر شهرًا، محددة لا تزيد ولا تنقص، منها أربعة أشهر معظمة يُحَرَّم فيها القتال، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، وهذا التقسيم من الله للشهور هو شرع مستقيم، ومنهج قويم، فاحذروا أن تظلموا أنفسكم فيها بالقتال، أو تنتهكوا حُرُمتها بالآثام، وعليكم بقتال المشركين جميعًا كما يقاتلونكم جميعًا، وتيقنوا أن الله معكم إذا أخلصتم له التقوى وحفظتم حدوده؛ لأنه ينصر من أطاعه واتقاه، وفي الآية: إباحة قتال المشركين في جميع شهور السنة حتى الأشهر الحرم إذا قاتلوا المسلمين.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر زيادةٌ في كفر المشركين؛ لأنهم غيّروا في أحكام الله، وبدّلوا في شرعه، وهذا التأخير زاد به الكفار غيًا وضلالاً ممن شرع لهم ذلك، يحلون التأخير عامًا ويحرمونه عامًا آخر؛ لتقع الأشهر المبدلة مكان الأشهر الأربعة الحرم، فيختارون بأهوائهم أربعة أشهر يجعلونها محرمة مكان تلك الحرم، فيحلون الأشهر الحُرم ويستبيحون فيها من القتال وطلب الثأر ما حرَّمه الله - عز وجل - حسّن لهم الشيطان قبيح ما فعلوه فاستحسنوه، والله لا يرشد كل كافر إلى ما فيه صلاحه، ولا يوفقه لما ينفعه.

﴿٣٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

أيها المؤمنون: ما لكم إذا دُعيتم إلى النفير لإعلاء كلمة الله بالجهاد في سبيله، والخروج للقتال تباطأتم وأحببتم البقاء في دياركم، والتلبّث بأوطانكم، هل آثرتم شهوات الدنيا على نعيم الآخرة؟ فما التمتع بشهوات الدنيا بالنسبة إلى نعيم الآخرة إلا وقتٌ قليل مع حقارة الدنيا وتفاهتها وقلة زادها، وقصر عمرها.

﴿٣٩﴾ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

إذا لم تخرجوا للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته يعذبكم بالإذلال والهزائم والآفات والمصائب، ويأت بعباد صالحين مجاهدين غيركم يتولونه وينصرونه، وليس في تَوَلِّيكم ضرر على الله - تعالى - فهو الغني عن كل أحد؛ لأنه صمد، وهو عظيم القدرة تنفذ قدرته فيما أراد، ومنها قدرته على استبدال من عصى من العباد بقومٍ أهلِ طاعةٍ وجهاد.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

إذا لم تنصروا رسول الله ﷺ فالله وحده ينصره ويعزّه ويؤيّده، كما نصره الله يوم أخرجه الكفار من مكة وهو أحد اثنين: الرسول ﷺ وأبو بكر في الغار، يوم يقول الرسول لصاحبه أبي بكر: «لا تحزن إن الله معنا، فاصبر واطمئن» هذا توكل على الله، حينها أنزل الله الطمأنينة على قلب محمد ﷺ، وأعمى عيون الكفار، ونصره بجند من الملائكة أبرار لا يُشَاهَدون بالأبصار، وصير الله دعوة الكفار هي الذليلة المغلوبة، وكلمة التوحيد ورسالة الله هي المنصورة المرفوعة، والله قوي لا يُغالب، جبار لا يُقهر، حكيم في صنعه وشرعه.

﴿٤١﴾ ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

اخرجوا للجهاد في سبيل الله - أيها المؤمنون - مشاةً وركبانًا، فرسانًا ورجالاً، نشاطًا وغير نشاط، وابذلوا أموالكم وقدّموا أرواحكم لإعلاء كلمة ربكم، وهذا العمل فيه الأجر العظيم، والنعيم المقيم، وأفضل من لذائذ الدنيا الفانية ونعيمها الزائل الرخيص.

﴿٤٢﴾ ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾

لو كان المطلب الذي تريده - أيها الرسول - متاعًا دنيويًا، وكان الحصول عليه يسيرًا بلا تعب ولا مشقة، وكان السفر إليه سهلاً متوسطًا لخرج معك المتخلفون، ولكن شق عليهم السفر لما فيه من ضرر زمن الحر، فآثروا البقاء على الجهاد، وإذا رجعت إلى المدينة سوف يأتيك هؤلاء المتخلفون ويقسمون بالله لو تيسرت أمورنا لخرجنا للجهاد معك، وهذا الذي حصل، وهم بقسمهم الكاذب هذا يعرِّضون أنفسهم لأشد العذاب، والله عالم أنهم كاذبون في أيمانهم الفاجرة وأعذارهم الباطلة.

﴿٤٣﴾ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

قد سامحك الله أيها الرسول، ولم يؤاخذك، لماذا أذنت لهم في ترك الجهاد والبقاء في المدينة وترك الخروج إلى تبوك، وكان عليك الانتظار حتى يظهر أهل الأعذار من أهل النفاق والإدبار، ويتضح أمر من صدق فيما قال ممن كذب فيما ادعى، فأنت عجلت في قبول أعذارهم.

﴿٤٤﴾ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾

لا يطلب منك الإذن والسماح في ترك الجهاد أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، إنما يسارعون إلى امتثال أمر ذي الجلال؛ للبذل والقتال، والله عالم بمن اتقاه واتبع رضاه، يعلم الصادق في نيته البار في عمله.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾

إنما يطلب منك السماح في ترك الجهاد من كفر بالله واليوم الآخر، الشاكّون في وعد الله ووعيده، فهم في هذا الشك مضطربون حائرون بين الكفر والإسلام.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾

ولو أحبوا بصدق الخروج معك لإعلاء كلمة الله لتهيؤوا واستعدوا بما يلزم المجاهد في سفره، ولكن الله ما أحبَّ خروجهم معك؛ لنفاقهم فعاقهم عن الخروج، ورماهم بالجبن والكسل والخور والفشل، وقيل لهم: اقعدوا في بيوتكم أذلاء حقراء مع أهل الأعذار من أهل العاهات والفقراء، والأطفال والنساء.

﴿٤٧﴾ ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

لو ذهب معكم هؤلاء المنافقون للقتال، ما زادكم خروجهم معكم إلا ضررًا وشرًا وفسادًا وفشلاً وهزيمةً؛ لأنهم أهل تخذيل وتوهين، ولأسرعوا بالنميمة بينكم، فشقوا صفوفكم، وخالفوا بين قلوبكم بزرع الخلاف وإلقاء العداوات، وإرهابكم من الكفار، وفيكم - أيها المؤمنون - أناسٌ ضعاف يتأثرون بكلام هؤلاء المنافقين، وينخدعون بقولهم، والله عليم بأحوال الظالمين، لا يخفى عليه من أمورهم شيء، اطلع عليها كلها وسوف يجازيهم بها.

﴿٤٨﴾ ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾

لقد أثار المنافقون الفتنة وسعوا فيها من قبل غزوة تبوك من تخويف المؤمنين بالعدو والإرجاف والإفساد وإيقاع الخلاف، ودبروا المكائد للرسول ﷺ، وأظهروا غير ما أبطنوا وسعوا في الخديعة والمكر، وقلبوا النظر والرأي في

مكيدة المسلمين، حتى نصر الله دينه ورسوله ﷺ، وأعلى كلمته، وأيد جنده، والمنافقون كارهون لهذا النصر، مبغضون لهذه الرفعة والعلو لدين الإسلام.

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾

ومن المنافقين من يقول لك - أيها النبي - سامحني في التخلف عن الخروج معكم للقتال؛ لأنك إذا ما أذنت لي وقعتُ في الإثم إذا تخلفت، وقيل: لأن بعضهم قال: أخشى إذا خرجت أن أُفتن بنساء الروم، لكنهم بعملهم هذا وقعوا في أعظم فتنة من حيث لم يشعروا بتخلفهم عن الجهاد ومعصيتهم للرسول ﷺ وكذبهم في الاعتذار، وأن النار محيطةٌ بالكفار وليس لهم منها مهرب ولا فرار.

﴿٥٠﴾ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾

إذا جاءتك - أيها الرسول - حسنة من نصر أو غنيمة أحزنت المنافقين، وإذا أصابتك مصيبة من نكبة أو شدة أو هزيمة قال المنافقون قد احتطنا لأنفسنا واستعملنا الحزم ودبرنا أمورنا فنجونا مما أصاب الرسول ﷺ ومن معه، ويُسرّون بهزيمتكم وسلامتهم ويعودون فرحين بما حل بالمؤمنين.

﴿٥١﴾ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾

قل أيها الرسول: لن يصيبنا من مصيبة إلا بقضاء من الله وقدر، والله يتولى أمورنا في الضراء والسراء، فللشدة صبر، وللرخاء شكر، والمؤمنون يفوضون أمورهم إلى الله من عسر ويسر.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

قل - أيها الرسول - للمنافقين: ماذا تنتظرون أن ينزل بنا إلا إحدى العاقبتين الحميدتين، إما نصر وعزة في الدنيا، وإما شهادة وأجر عظيم في الآخرة، وأما نحن فننتظر أن يُنْزِل الله بكم قارعة من السماء، أو نقتلكم ونأسركم بأيدينا، فانتظروا ما يحل بنا ونحن ننتظر ما يحل بكم.

﴿٥٣﴾ ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

قل - أيها الرسول - للمنافقين: مهما تصدقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل الله صدقاتكم؛ لأنكم خرجتم عن الطاعة، وفارقتم الجماعة، فأنتم عتاة مردة على أمر الله.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾

والمانع من قبول صدقاتهم كفرهم بالله وبرسوله ﷺ، وصدقة الكافر مردودة، وصلاتهم بكسل وتثاقل وكره ورياء، والمرائي لا يقبل عمله، ثم إنهم لا يتصدّقون إلا بكره منهم للصدقة، فلا رغبة منهم في الإنفاق لما ران على قلوبهم من النفاق.

﴿٥٥﴾ ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

فلا تعجب بأموال هؤلاء المنافقين ولا بأولادهم، فإن الله أراد أن يجعلها سببًا لشقائهم وهمهم وحزنهم في الدنيا؛ لتعلقهم بها مع فراغ قلوبهم من الإيمان والرضا وتركهم الشكر عليها، وهي في الآخرة سبب عذابهم في نار جهنم؛ لمنعهم زكاتها وحقوقها الواجبة، ثم إن موتهم يأتيهم وهم كارهون له، فتخرج أرواحهم بمشقة، ويعانون أشد الألم؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ.

٥٦ ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾

يقسم المنافقون أنهم مع المؤمنين في الحرب والنصر وكذبوا في ذلك، فهم يظهرون لكم المودة بألسنتهم فحسب، أما قلوبهم فمليئة بالكره لكم وعدواتكم، وما أظهروا لكم الإسلام وأبطنوا الكفر إلا لأنهم يخافون منكم أشد الخوف لو أظهروا الكفر فيَتَّقُونكم بالنفاق.

٥٧ ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

لو يجد المنافقون حصنًا منيعًا أو كهوفًا واقية أو سراديب تحت الأرض لاستتروا فيها مسرعين إليها بوجل واضطراب من شدة خوفهم.

٥٨ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

وبعض المنافقين يعيبك - أيها النبي - في قسمتك للصدقات، ويتهمك بالمحاباة وعدم العدل، فإذا أعطيتهم منها على قدر رغبتهم وطمعهم رضوا عنك وأثنوا عليك، وإذا لم تعطهم ما يرغبون غضبوا منك، وعابوا عليك، وطعنوا في عدلك، وهذه صفة عبيد الدنيا؛ عند المغانم طمع، وعند المغارم جزع.

٥٩ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾

ولو أن المنافقين قنعوا بما أعطاهم الله من الرزق على يد رسول الله ﷺ من الغنائم ونحوها وقالوا: الله كافينا ولن يضيعنا وسوف يتولى أمرنا سوف يرزقنا رزقًا واسعًا كثيرًا؛ لأن فضله لا يُحد، وعطاءَه لا يُرد، وسوف يعطينا الرسول ﷺ فيما يستقبل أكثر وأفضل، إننا نطمع في فضل الله ونرغب في عطائه، لو قالوا هذا مع الظن الحسن لكان خيرًا لهم.

٦٠ ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

إنما يُعطى من الزكاة المفروضة ثمانية أصناف: الفقراء المعدمون، والمساكين المحرومون، والجباة العاملون، والكافرون المتألَّفون، أو لعتق المملوكين، أو من عجز عن وفاء الدين، و المجاهدون، والمسافرون المنقطعون، وهذه القسمة حكم من الله لازم، وفرض واجب، فهو عليم بمصالح العباد وأهل الحاجة من غيرهم، حكيمٌ في تدبيره، ولهذا أحسن في قسمه، وعدل فيما أعطى سبحانه.

٦١ ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وبعض المنافقين يعيبون على الرسول الكريم ﷺ أنه يسمع لكل أحد، ويصدق كل خبر، وصارت أذنه متلقية، وقابلة لما يُقال له، فردّ الله عليهم بأن الرسول ﷺ سامع للخير لا الشر، يقبل الصدق لا الكذب، ويُصَدِّق بالله وكتابه، ويصدق المؤمنين فيما أخبروه بما قاله الكافرون المنافقون، وهو رحمة لمن اتبعه، وسبب نجاة وإمام هدى لمن اقتدى به، ومن آذى الرسول ﷺ بقول أو فعل فله العذاب المؤلم الموجع الدائم في نار جهنم.

٦٢ ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾

يقسم المنافقون بالله لكم - أيها المؤمنون - أنهم ما قالوا ما قيل عنهم؛ حتى يكسبوا رضا المؤمنين، والله ورسوله أحق بالإرضاء لو كانوا مؤمنين حقًا، فالله وحده هو من بيده نفعهم وضرهم، ورسوله الكريم ﷺ مبلغ عن الله، هادٍ إلى سبيله سبب لكل خير.

﴿٦٣﴾ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْيُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن من عادى الله وعادى رسوله فأن مصيره نار جهنم خالدًا فيها، وهذا هو الذل العظيم والهوان الشديد والخزي الدائم.

﴿٦٤﴾ ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

يخشى المنافقون أن ينزل الله على رسوله ﷺ سورة تفضحهم وتطلع رسوله والمؤمنين على ما في قلوب المنافقين من الكفر والعداوة، قل - أيها النبي على سبيل التهديد-: استهزئوا على طريقتكم كما تشاؤون فالله مظهر ما تخفون وكاشف ما تسرّون.

﴿٦٥﴾ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾

ولئن سألت - أيها النبي - المنافقين عن استهزائهم بالقرآن وبك وبالإسلام في غزوة تبوك لاعتذروا إليك وقالوا: كنا نتحدث للتسلية وإزجاء الوقت فحسب، ونمزح لنقطع الطريق، فقل لهم: أبالله العظيم وكتابه الحكيم ورسوله الكريم تستهزئون، أما وجدتم حديثًا غير هذا؟

﴿٦٦﴾ ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾

لا تعتذروا - أيها المنافقون - عن هذا الاستهزاء، فعذركم باطل، وفعلكم آثم، وقولكم كاذب، قد كفرتم بهذا الاستهزاء، فإن تاب الله على جماعة منكم عادوا إلى الإسلام وندموا على ما فعلوا، فإن الله سوف يعذب جماعة أصرَّت على الكفر وأبطنت النفاق ولم تتب مما فعلت.

﴿٦٧﴾ ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

المنافقون والمنافقات حزب واحد، متفقون على الكفر بالرحمن، وحرب أهل الإيمان، يدعون إلى كل منكر، ويتواصون بكل قبيح، وينهون عن كل معروف، ويحذرون من كل رشد، ويبخلون بعطائهم، ويمسكون نفقتهم في وجوه الخير، تركوا الإيمان فأهملهم الرحمن من التوبة والغفران، إن المنافقين مردة خارجون عن طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

﴿٦٨﴾ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار أن مصيرهم نار جهنم يخلدون فيها، وهي تكفيهم عقابًا وجزاءً، وحرمهم من جنته وطردهم من رحمته، ولهم عذاب دائم ثابت مهول لا يخفف ولا ينقطع.

﴿٦٩﴾ ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

كما فَعَلَ الذين سبقوا من أهل الكفر فَعَلَ هؤلاء المنافقون، مع أن من سبق كانوا أقوى من هؤلاء، وأكثر أموالاً وأولادًا، فتمتعوا بشهوات الدنيا ولذائذها غاية التمتع، وأنتم تمتعتم بالشهوات والحظوظ الدنيوية والمطالب السفلية كما تمتع السابقون، وخضتم في الباطل والمعاصي والمخالفات كخوض أولئك في باطلهم وكفرهم، فأنتم وإياهم أكثرتم من اللهو واللعب والتنعم والتلذذ مع مخالفة أمر الله، والصد عن سبيله، ومن كان هذا فعله فقد بطل عمله، وخاب سعيه في الدنيا والآخرة، وصار إلى الهلاك، فأبدل الله غناهم فقرًا، وعزَّهم ذُلاً، وتنعمهم عذابًا أليمًا.

٧٠ ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

أما بلغ المنافقين خبر الكفار السابقين مثل قوم نوح الذين أُغرقوا بالطوفان، وعاد الذين أُهلكوا بالريح العاتية، وثمودَ الذين أهلكوا بالصيحة، وقوم إبراهيم الذين سُلِبوا النعم وحلَّت بهم النقم، وأصحاب مدين الذين أُخذوا بعذاب يوم الظُّلة، وقرى قوم لوط المؤتفكات الذين قُلبت عليهم قراهم ورُجموا بالحجارة، جاء الرسل هؤلاء الأقوام بالمعجزات والأدلة القاطعة على وحدانية الله، فكذبوا بها، فالله لم يكن ليعذبهم ظلمًا بلا ذنب، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والطغيان وتكذيب الرسل والعصيان، فاستحقوا العذاب والخسران.

٧١ ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

والمؤمنون والمؤمنات حزب واحد يتعاونون على البر والتقوى، ويتحابون وينصر بعضهم بعضًا، يأمرون بكل معروف مشروع من صالح الأعمال وحسن الأقوال وطيب الأحوال، وينهون عن كل منكر من قول قبيح، أو فعل خبيث، أو حالٍ سيئ، ويؤدون الصلاة على أتم وجه بما تقتضيه من حقوق، ويدفعون الزكاة الواجبة لمستحقيها، ويطيعون الله ورسوله، فيفعلون الأوامر، ويجتنبون النواهي، هؤلاء المتصفون بهذه الصفات سيرحمهم الله بإنجاز ما وعد من ثواب، وسيصرف عنهم كل عقاب، وينجيهم من كل عذاب، فيحقق لهم ما طلبوا ويؤمنهم من كل خوف، إن الله لا يعجزه شيء، ولا يتعاظمه أمر، فمن عزته إنفاذه وعده ووعيده، وهو حكيم في صنعه وشرعه، فمن حكمته إثابة المحسن، ومعاقبة المسيء.

٧٢ ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

وعد الله المؤمنين والمؤمنات دخول الجنات، تجري فيها الأنهار من تحت الأشجار، مع خلود دائم ونعيم ثابت مستمر، في قصور عامرة حسنة، ودور بهية جميلة في جنات الخلد مع إقامة دائمة لا انقطاع فيها ولا خروج منها ولا كدر معها، ورضوان من الله أكبر من كل نعيم، وأعظم من كل محبوب؛ لأن في الرضا غاية السعادة وكمال التنعم والأمن من السخط، وهذا ظفر لا يعادله ظفر، وفلاح لا فلاح بعده؛ حيث راحة النفس، وقرة العين، وبهجة الخاطر، ومتعة الجسم، مع حسن المقام وطيب المقر.

٧٣ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

يا أيها النبي: جاهد الكفار والمنافقين بالمال والنفس واللسان، واغلظ قولك وفعلك عليهم بشدة وخشونة؛ ليصان الحق عن أذاهم، ومردُّهم إلى النار وبئس القرار، خالدين فيها لسوء ما فعلوه، وقبح ما ارتكبوه.

٧٤ ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يقسم المنافقون لك: إنهم ما قالوا ما بلغك عنهم من سبٍّ وطعنٍ، ولقد كذبوا، لقد نطقوا بكلمة الكفر من سب الرسول ﷺ والطعن في دينه، فخرجوا بذلك من الإسلام وعزموا على ما لم يستطيعوا الوصول إليه، وهو قتل الرسول ﷺ ليلة العقبة في عودته من تبوك، وما كرهوا إلا ما يوجب عليهم من الله المنة وله الشكر على حسن الصنيع بهم، حيث أغناهم من فقر، وتفضل عليهم بالغنائم بعد حاجة وبؤس، فإن تابوا بالإيمان وطاعة الرحمن كان خيرًا لهم في

الدنيا والآخرة، وإن يعرضوا عن التوبة والإيمان يعذبهم الله في الدنيا على أيدي المؤمنين بالقتل والأسر، وفي الآخرة بالخلود في النار، وما لهم ولي يحفظهم ويتولاهم ويجلب لهم المنفعة، ولا نصير يدفع عنهم العذاب.

٧٥ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

من المنافقين من عاهد الله: لئن رزقنا الله من فضله لندفعن الصدقة الواجبة وما في المال من حقوق، ولنستقيمن على ما أراد وأحبَّ - سبحانه - من فعل الطاعات واجتناب المعاصي.

٧٦ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

فلما تفضل الله عليهم بالرزق وأغناهم بعد الفقر بخلوا بالإنفاق؛ لتمكن النفاق في قلوبهم، وأدبروا عن طاعة الله واتباع رسوله ﷺ، وهم معرضون عن الحق من علم نافع وعمل صالح.

٧٧ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

فأورثهم البخل بالمال نفاقًا راسخًا في القلوب إلى الموت؛ بسبب نقض العهد مع الله وإخلاف الوعد، وكذبهم في إظهارهم غير ما يبطنون، وقَسَمُهم وهم كاذبون، وتصنعهم وهم مخادعون.

٧٨ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

ألم يعلم المنافقون أن الله مطلع على ما كتموه في الصدور من الكفر والعداوة، وهو - سبحانه - عليم بما يقولونه سرًا فيما بينهم من سب الدين وطعن في النبي الأمين، والله لا تخفى عليه خافية، ولا يكتم عليه سر جل في علاه.

٧٩ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

والمنافقون الذين يعيبون المتطوعين المؤمنين في دفع الصدقات، فإذا تصدقوا بشيء يسير قالوا: ماذا ينفع هذا القليل في تجهيز جيش كبير، وإن تصدقوا بكثير قالوا: هذا هو الرياء. فلا صاحب القليل عذروا، ولا منفق الكثير شكروا، ويعيبون الذين لا يجدون إلا شيئًا قليلاً يتصدقون به فيلمزونهم ويستهزئون بهم ويقولون: إن الله غني عن هذا اليسير الحقير، فالله يسخر منهم كما سخروا من عباده الصالحين سخرية تليق بجلاله جل في علاه كما جاء في كتابه، ولهؤلاء المنافقين في الآخرة عذابٌ مؤلم في نار جهنم.

٨٠ ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

استغفر - أيها النبي - لهؤلاء المنافقين أو لا تستغفر لهم فليسوا أهلاً للمغفرة، ولو استغفرت لهم سبعين مرة أو أكثر فالله لن يغفر لهم ذنوبهم أبدًا؛ لأن عندهم الكفر بالله ورسوله الذي يمنع صاحبه غفران ذنوبه، والله لا يوفق للرشد كل متمرد على شرعه خارجٍ عن طاعته.

٨١ ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾

فرح الذين تخلفوا من المنافقين عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ؛ لأنهم وجدوا السلامة من مشقة السفر والجهاد، وكرهوا بذل الأموال والأنفس لإعلاء كلمة الله، وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا للجهاد زمن الحر ووقت القيظ، فقل لهم - أيها الرسول -: نار جهنم أشد حرًا من هذا الحر الذي تخافون الخروج فيه، فأنتم تركتم الخروج هروبًا من الحر، وعاقبة هذا الفعل حر نار جهنم تصلونه، ولو كان المنافقون يفهمون حقائق الأمور ونصوص الشرع وأسرار الأحكام ما أقدموا على هذا الفساد، والتخلف عن الجهاد ومعصية رب العباد.

٨٢ ﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

فليضحكوا في هذه الحياة الدنيا فما أقل بقاءهم فيها، فسوف يبكون كثيرًا في الآخرة على ما فرطوا في جنب الله من استهزاء بالدين، وسخرية من المؤمنين، وهذا الموعود جزاءً لهم على ما اقترفوا من الذنوب وفعلوه من الآثام.

٨٣ ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾

فإن أعادك الله - أيها الرسول - من تبوك إلى المدينة وجاءك جماعة من المنافقين يريدون الجهاد معك مرة أخرى فقل لهم: لن آذن لكم بالجهاد معي أبدًا، ولن تقاتلوا معي عدوًا من أعداء الإسلام في أي مكان؛ لأنكم عصيتم الله وخالفتم أمري في غزوة تبوك، فالواجب الحذر وأخذ الحيطة منكم، فابقوا في المدينة أذلاء حقراء مع من تخلف من الضعفاء والنساء.

٨٤ ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

ولا تصل - أيها الرسول - صلاة الجنازة على أي ميت من هؤلاء المنافقين، ولا تقف على قبره للدعاء له؛ لأنهم كفروا بالله وبرسوله، وقد خرجوا عن طاعة الله وتمردوا على دينه فهم أعداء الإسلام.

٨٥ ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

ولا تستحسن ما وهبهم الله من أموال وأبناء، فإن الله أراد أن يجعلها سبب المتاعب والمشاق لهم؛ لكثرة حرصهم وقلقهم، وخروج الرضا من قلوبهم، ثم تخرج أرواحهم من أبدانهم بمشقة وكره، مع الكفر المصاحب لهم الذي يخلدون بسببه في نار جهنم، فحياتهم شقاء، وموتهم عناء.

٨٦ ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾

وإذا أنزل الله على رسوله سورة من القرآن تدعوهم إلى الإيمان بالله، والجهاد مع رسوله في سبيل الله رأيت الأغنياء منهم والقادرين أهل السعة والفضل يستأذنون الرسول ﷺ في التخلف عن الجهاد، وقالوا: اتركنا مع العجزة أهل الأعذار من الضعفاء والنساء؛ لما في قلوبهم من الجبن والخور والفشل.

٨٧ ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

رضي المنافقون بأن يكونوا مع النساء اللواتي خُلِّفن عن الجهاد في البيوت، ففاتتهم صفة الرجال من الشجاعة والثبات وعلو الهمة، وختم الله على قلوبهم بالكفر، فليس للحق وصول إليها، فهم لا يفهمون ما في الجهاد من خير ولا يعقلون ما ينفعهم وما يضرهم.

٨٨ ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

لكن الرسول ﷺ وأتباعه من المؤمنين بذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله لإعلاء كلمته، وهؤلاء لهم خيرات الدنيا والآخرة من النصر والعزة والكسب الحلال من الغنائم والشهادة ومغفرة الذنوب، وهم الفائزون بالرضوان وسكنى الجنان، فقد أدركوا الظفر، ونجو من كل خطر.

٨٩ ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

هيأ الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار، في خلود دائم ونعيم مستمر، وهذا هو الفلاح الكبير والفوز العظيم الذي ليس بعده فوز، وهي نيل أشرف المطالب، وأجلِّ الدرجات.

٩٠ ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

وأتى المعتذرون من الأعراب بأعذار مقبولة إلى الرسول ﷺ ليأذن لهم في التخلف عن غزوة تبوك، وتخلف منافقو الأعراب عن الجهاد بلا عذر، فهم كذبوا الله ما وعدوه، وخالفوا الرسول ﷺ وما اتبعوه؛ لأنهم مكذبون بالإيمان، سيصيب الأعراب الكاذبين في أعذارهم والذين تخلفوا ولم يعتذروا عذاب مؤلم موجع في نار جهنم.

٩١ ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

ليس على من تخلف من أهل الأعذار كالشيوخ والنساء والصبيان والعجزة والمرضى والزمنى والعمي والفقراء الذين قصّرت بهم النفقة عن الجهاد، ليس عليهم ذنب في ترك الخروج للقتال إذا أخلصوا العبادة لله، والمتابعة لرسوله ﷺ وسلَمُوا من النفاق، لا لوم ولا عتب عليهم، فالله غفور لهم، قابل لعذرهم، متجاوز عن تقصيرهم، رحيم في توسعة الأمر لهم، وعدم تكليفهم بما لا يطيقون.

٩٢ ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾

ولا ذنب ولا مؤاخذة على من جاؤوك - أيها النبي - يطلبون منك ما يركبونه من الدواب للخروج في سبيل الله فاعتذرت إليهم بعدم وجود ما يركبونه عندك، فمن حبهم للجهاد انصرفوا من عندك يبكون حزنًا؛ لأنهم ما وجدوا ما ينفقونه ليخرجوا معك، فقصرت بهم ذات اليد عن القدرة على الجهاد، فهؤلاء معذورون ومشكورون؛ لأنهم فعلوا ما يطيقون، وصدقوا في نياتهم، وحزنوا على فوت الجهاد.

٩٣ ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

إنما الإثم والمؤاخذة والعقوبة على أناس يطلبون منك التخلف عن الجهاد، وعندهم النفقة والقدرة على الجهاد، رضوا -من مَهَانَتِهم لأنفسهم- بأن يكونوا مع ربات الحجال في الخدور من النساء، فلا رجولة فيهم، ولا شجاعة لهم، ولا إقدام عندهم، فقد ختم الله على قلوبهم فلا تبصر الحق، وهم لا يعلمون ما ينفعهم مما يضرهم؛ ولهذا تركوا الجهاد وما فيه من فضائل عظيمة، وما يفعل هذا إلا من غطى الجهل عليه، وحرم العلم النافع.

٩٤ ﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

إذا عدتم إلى المدينة من تبوك سوف يأتيكم المنافقون ويعتذرون إليكم في التخلف وهم كاذبون في أعذارهم، فقل لهم - أيها النبي -: لا تعتذروا فأنتم كاذبون، ولن نقبل لكم أيَّ عذر، فقد كشف الله لنا حالكم بالوحي، وفضح سرائركم وما أضمرتم من النفاق، وسيظهر علم الله فيكم أتتوبون وتصلحون، أم ستبقون على النفاق، وسوف يرى رسوله ﷺ عملكم فيما يستقبل من الأيام، ثم تعودون في الآخرة إلى عالم ما غاب عن الأبصار وما شاهدته الأنظار الذي لا تخفى عليه خافية في السموات والأرض، فيخبركم بما فعلتم ويجازيكم على ما صنعتم.

٩٥ ﴿ سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

يقسم لكم هؤلاء المنافقون إذا عدتم من تبوك إلى المدينة لأجل أن تصفحوا عنهم ولا تلوموهم وتقبلوا عذرهم، فاصفحوا عنهم واتركوهم إنهم خبثاء، أفعالهم قذرة، وأحوالهم قبيحة، ومقرُّهم نار جهنم يصلونها مخلدين فيها بسبب أعمالهم المشينة.

٩٦ ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

يقسم لكم المنافقون أيمانًا كاذبةً آثمةً حتى ترضوا عنهم، ولو حصل رضاكم عنهم وعذركم لهم فإن الله غاضبٌ عليهم؛ لأنهم خرجوا عن طاعته وتمردوا على شرعه، فأنتم قد تغترون بما ظهر لكم، ولكن الله يعلم ما أخفوا من النفاق.

٩٧ ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

سُكَّان البادية من الأعراب أكثر من غيرهم كفرًا بالله ونفاقًا؛ لجهلهم وبعدهم عن العلم وغلظ أخلاقهم وقسوة قلوبهم وجفاء طبيعتهم، وهم أولى وأحرى أن يجهلوا الأحكام الشرعية والآداب المرعية؛ لبعدهم عن مواطن التعليم ولقاء ورثة الأنبياء، والله عليم بأحوالهم، فهذا الوصف لهم من عليم، حكيم فيما قدّر وشرع وقضى وأبرم.

٩٨ ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وبعض الأعراب يرى أن ما تصدق به في سبيل الله خسارة وغرامة؛ لنفاقهم وعدم احتسابهم الأجر في ذلك، وإنما فعل ذلك رياءً وسمعة وتُقْيَة، وهم ينتظرون بكم المصائب والهزائم؛ لبغضهم لكم، عليهم هم وحدهم الدواهي والمصائب من سوء الحال، وقبيح المآل، وغضب ذي الجلال مع الهوان والإذلال، والله سامع لما قالوا، عالم بما فعلوا، وسيحاسبهم على سوء الأقوال، وقبيح الأفعال.

٩٩ ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

بعض الأعراب مؤمنون بالله ورسوله، صادقون في إيمانهم، يحتسبون الأجر من الله فيما يتصدقون به في سبيله، يتقربون بالطاعات إلى الله، وليحصلَ لهم استغفارُ الرسول ﷺ ودعاؤه بالرحمة والرضوان لهم، ألا إن صدقتهم ودعاء النبي لهم نافع مقبول عند الله؛ لإخلاصهم، وجزاؤهم جنات النعيم، يدخلونها برحمة أرحم الراحمين، لأنه يغفر للتائبين ذنوبهم، ويرحم المنيبين، ويتجاوز عمن أساء ثم ندم وعاد.

١٠٠ ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

والسابقون الأولون إلى الإيمان بالله والهجرة في سبيله والجهاد والصدقة من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم في العمل الصالح، قَبِل الله طاعتهم ورضي عملهم وغفر ذنبهم ولم يسخط عليهم، ورضوا عن الله بما أنعم عليهم من الفضل، وأفاض عليهم من البر، وهيأ الله لهم في الآخرة جنات تجري تحت أشجارها الأنهار، باقين فيها أبدًا، منعمين فيها سرمدًا، ذلك هو الظفر الأعظم والفلاح الأكبر الذي لا يعادله ظفر ولا يضاهيه فلاح.

١٠١ ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

وبعض الأعراب حول المدينة منافقون أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، وبعض أهل المدينة أناس استمرؤوا النفاق واعتادوا عليه حتى خفي أمرهم على رسول الله ﷺ، فلم يكتشف أمرهم لمبالغتهم في التخفي بالنفاق، ولكن الله يعلمهم ويكشف أمرهم لرسوله ﷺ، وسيعذبهم الله عذابين؛ عذاب الفضيحة في الدنيا، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم، وعذاب سكرات الموت وما في القبر من أهوال، وفي الآخرة عذاب شديد موجع في الدرك الأسفل في النار.

١٠٢ ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وطائفة أخرى من المسلمين تخلفوا عن الخروج معك بلا عذر، وأقروا بخطئهم، عندهم عمل صالح من تمسك بشريعة الإسلام، وعندهم عمل سيئ وهو التخلف عن غزوة تبوك، ثم ندموا واستغفروا من هذا التخلّف لعل الله أن

يغفر لهم ذنوبهم لتوبتهم، فهم في رجاء غفران الله، والله غفور لمن تاب، رحيم بمن أناب، فتح لمن عاد إليه الباب، ورفع لمن رجع عن معصيته الحجاب.

﴿١٠٣﴾ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

خذ - أيها الرسول - من هؤلاء التائبين من تخلفهم عن الغزو صدقةً من أموالهم تطهر نفوسهم من الذنب والشح، وتزكي أموالهم فتصلح نفوسهم وتُنَمّى أموالهم، وادع لهم بالغفران؛ لأن دعاءك لهم سبب لنزول الطمأنينة والسكينة على نفوسهم، والله سميع لاعترافهم بالتقصير، ولدعائك لهم بالعفو من اللطيف الخبير، عليم بنية الصادق في توبته من غيره.

﴿١٠٤﴾ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

ألم يعلم هؤلاء التائبون أن الله يتوب على من تاب ويرحم من أناب، فيغفر زلاتهم ويتقبل صدقاتهم؛ لأنه كثير الغفران لمن هجر المعصية وأقبل إلى الطاعة وندم على الذنب، رحيم بمن صدق في توبته، فلا يؤاخذه بما سلف ولا يعذبه بما اقترف.

﴿١٠٥﴾ ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وقل - أيها النبي - لمن تاب: اعملوا صالحًا، وافعلوا خيرًا، فسيرى الله عملكم من صلاح أو فساد، وسيرى ذلك العمل رسوله الكريم وعباده الصالحون، وهم شهداء الله في أرضه، وستعودون يوم القيامة إلى عالم ما خفي وظهر، وغاب وحضر من الأقوال والأعمال؛ فيخبركم بالأعمال، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًا فشر.

﴿١٠٦﴾ ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

وطائفة أخرى من المتخلفين عن الجهاد، مؤجلٌ أمرهم إلى الله، وهم: الثلاثة الذين أخَّر الله أمرهم، فإما يعذبهم الله بتخلفهم، وإما يتغمدهم برحمته ويتوب عليهم، والله عليم بما في قلوبهم، حكيمٌ في قضائه، عليم بمصيرهم.

﴿١٠٧﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

والمنافقون الذين بنوا في المدينة مسجدًا لكيد المؤمنين والتآمر على الرسول ﷺ وبث الفرقة والخلاف في صفوف المسلمين، وانتظار لقدوم من حارب الله وحارب رسوله وهو أبو عامر الراهب الذي ذهب إلى قيصر ليستعين به على حرب المسلمين، وسوف يقسم هؤلاء المنافقون الفجار أنهم ما قصدوا بناء هذا المسجد إلا لتيسير حضور الجماعة على الضعفاء والعجزة الذين يمنعهم المطر والحر من الذهاب لأبعد منه، والله يشهد إنهم كذبوا في هذه الأيمان الآثمة. وفيه:- أن بعض طرق الخير في الظاهر قد تُحوَّل إلى وسائل للشر والإضرار بالإسلام وأهله.

﴿١٠٨﴾ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

لا تصل - أيها النبي - في مسجد المنافقين هذا أبدًا، إن مسجد قباء والمسجد النبوي أولى أن تصلي فيهما من مسجد الضرار؛ لأنه بُني على تقوىً من الله ورضوان من أول ما دخل النبي ﷺ المدينة مهاجرًا، وفي قباء رجال من الأنصار يحبون الطهارة الحسية بالوضوء ونحوه، والمعنوية بالإيمان والتوبة من آثار الذنوب والمعاصي، والله يحب من يتطهر من النجاسات والفواحش والمخالفات؛ لأنه طيب لا يقبل إلا طيبًا.

﴿١٠٩﴾ ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لا يستوي من أقام بنيانه على أساس متين من تقوى الله ورضوان، وقصد وجهه والعمل بطاعته، ومن أقام بنيانه على جانب وادٍ منهار أوشك على السقوط؛ لضعف أساسه، فإذا سقط سقط بصاحبه في نار جهنم، وهذا حال أهل

مسجد الضرار الذي بنوه نفاقًا وكمينًا لدسائسهم ومكرهم، والله لا يوفق من ظلم نفسه بالنفاق ومحاربة الإسلام للرشد والصلاح.

﴿١١٠﴾ ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لا يزال بناء المنافقين لمسجد الضرار شكًا وحَيْرةً ونفاقًا في قلوبهم يلازمهم أبدًا إلى أن يموتوا، أو يمزق الهم والغم والحزن قلوبهم، والله عليم بأحوال عباده، يعلم الصادق من الكاذب، حكيم في صنعه وشرعه وثوابه وعقابه.

﴿١١١﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

إن الله اشترى أنفس المؤمنين منهم، فباعوا أرواحهم واشتروا الجنة ونعيمها، فهم يقاتلون في سبيل الله أعداء الله؛ لإعلاء كلمة الله، فيقتلون الكفار، ويستشهدون هم مع الأبرار، وينفقون أموالهم في سبيل الله وَعَدَهُم الله بالجنة وعدًا لازمًا ثابتًا مُسَطَّرًا في التوراة والإنجيل والقرآن، ولا أحد أوفى بالعهد وإنجاز الوعد من الواحد الأحد، الذي لا يخلف ما وعد، ولا ينقض ما عقد، فلكم البشرى - أيها المؤمنون - بهذا البيع الذي بايعتم ربكم عليه، فإنه والله أعظم صفقة رابحة، وهو الظفر الأعظم والفوز الأكرم، فالمشتري الله، والبائع المؤمنون، والسلعة أنفسهم، والثمن الجنة، ومجلس العقد ساح القتال، فلما قرئ صك العقد الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ قال المؤمنون: ربح البيع والله لا نقيل ولا نستقيل.

﴿١١٢﴾ ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هؤلاء الأبرار المجاهدون الذين وعدهم ربهم بالجنة هم التائبون من الذنوب ما ظهر منها وما بطن، المخلصون الطاعة لربهم، الحامدون الله في السراء والضراء، الصائمون أو المتفكرون في خلق الله، المداومون على الصلاة، المكثرون من نوافلها، الآمرون بما يحبه الله ورسوله ﷺ، الناهون عما يكرهه الله ورسوله ﷺ، القائمون بحفظ الشرائع والتزام الأحكام وترك النواهي، وبَشِّر - أيها الرسول - المؤمنين بجنات النعيم جزاء أعمالهم الصالحة.

﴿١١٣﴾ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

ما ينبغي للرسول ولا ينبغي للمؤمنين أن يطلبوا من الله المغفرة للمشركين، لأن الله لا يغفر أن يُشرك به ولو كانوا أقرباء لهم، من بعد ما ظهر أنهم كفار من أصحاب النار، فمن مات على الشرك حُرِمَ أن يُسْتَغْفَرَ له.

﴿١١٤﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾

لم يكن استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك إلا لأن إبراهيم وعد أباه في قوله: لأستغفرن لك، فلما ظهر لإبراهيم عداوة أبيه لربه بالشرك تبرأ منه، وترك الاستغفار له، إن إبراهيم كثير الإنابة إلى ربه والتضرع والخضوع والتوبة، صفوح عن الأخطاء، صبور على الأذى، كظوم للغيظ.

﴿١١٥﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

وما كان في حكم الله وعدله أن يؤاخذ قومًا على الضلال حتى يتبيّن لهم الحق من الباطل، والحلال من الحرام، ويقيم عليهم الحجة بالرسالة، فإذا بيّن لهم ما يحل وما يحرم أثاب الطائع وعاقب العاصي؛ لأن الله عليم بكل أحوال عباده من حسن وسيئ، وصلاح وفساد، ومن يستحق الثواب والعقاب.

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾

الله وحده له ملك السموات والأرض وما بينهما، لا شريك له في ملكهما خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا ورزقًا، وهو المحيي والمميت وحده، وليس لكم - أيها الناس - غير الله يتولى أموركم بالحفظ والرعاية والنصر والولاية؛ فيجلب لكم النفع ويدفع عنكم الضر، بل الله يتولى ذلك كله.

﴿١١٧﴾ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾

لقد قَبِل الله توبة نبيه والمهاجرين والأنصار وغفر ذنوبهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ لإيمانهم به وصدقهم معه وجهادهم في وقت الشدة والحرّ والمشقة في غزوة تبوك من بعد ما كاد يزيغ قلوب بعضهم بالتخلف عن الجهاد؛ لقلة الزاد والمزاد، وصعوبة السير والجلاد، ثم تاب عليهم وتجاوز عن همهم بالتخلف، وثبت قلوبهم على الإيمان، إن الله رؤوف بمن تاب لا يعاقبه، رحيم بمن أناب لا يعاتبه.

﴿١١٨﴾ ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾

وكذلك تاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وليسوا منافقين، وهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، من بعد ما ضاقت عليهم الأرض الوسيعة الفسيحة، وضاقت أنفسهم من شدة الحزن والهم والغم، وتيقنوا أن لا مفر من الله إلا إليه، ولا نجاةَ من عذابه إلا برحمته، ولا ملجأ من غضبه إلا بالتوبة إليه، فمنَّ الله عليهم بأنه قَبِل توبتهم؛ ليكونوا من بين التائبين ومع المنيبين، إن الله واسع المغفرة لمن تاب، جزيل الرحمة بمن أناب، يقبل عثرة من زلت به القدم إذا ندم.

﴿١١٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

أيها المؤمنون: راقبوا الله وخافوه بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وتمسكوا بالصدق في الأقوال والأعمال والأحوال فهو أشرف الخلال.

﴿١٢٠﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

لا يحل ولا يحق لسكان المدينة ومن جاورهم من أعراب البادية أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، ولا يؤثروا لأنفسهم الراحة على نفس محمد ﷺ، وذلك النهي عن التخلف سببه أنهم لا يجدون عطشًا أو تعبًا أو جوعًا لإعلاء كلمة الله، ولا ينزلون مكانًا فيه إغضاب للكفار، ولا يأخذون من عدو الله شيئًا من الأنفس بالقتل أو الأسر أو يغنمون منه مالاً، إلا سُجِّلَ لهم ذلك في صحائف الأعمال الصالحة المقبولة، إن الله حافظ لثواب المخلصين الصادقين، وهم من أحسن في عمله على وَفْق ما شرعه ربه.

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

ولا يتصدقون بصدقة قلَّت أو كثرت ولا يتجاوزون واديًا في مرضاة الله لإعلاء كلمته إلا كتب الله لهم ذلك العمل؛ ليثيبهم عليه أحسن الثواب وأعظم الجزاء في دار النعيم المقيم بجوار الرحمن الرحيم.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾

ولا يجب على المؤمنين أن يخرجوا جميعًا للجهاد أو طلب العلم ويتركوا ديارهم خالية، بل يخرج من كل قبيلة جماعة ويبقى آخرون، وتلك الجماعة تتعلم العلم النافع، ثم إذا عادت علَّمت من تخلف وفقَّهتهم في دين الله وحذرتهم معاصيه ومخالفة أمره؛ لعلهم يتقون ربهم بالعمل بكتابه وسنة نبيه ﷺ

﴿١٢٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

يا أيها المؤمنون: ابدؤوا بقتال الكفار المحاربين القريبين من داركم؛ لأنهم أشد خطرًا، وكونوا أقوياء أشداء عليهم؛ ليُهاب جانب الحق، ويُحترم الإسلام، واعلموا أن الله ينصر المتقي ويؤيده، وهو من عمل بما أحبَّ الله وترك ما كَرِه سبحانه.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

وإذا أنزل الله عليك - أيها الرسول - سورةً من سور القرآن فَمِنَ المنافقين من يقول لأصحابه -استهزاءً-: من منكم زادته هذه السورة إيمانًا بالله ورسوله؟ فأما المؤمنون الصادقون فزادتهم السورة إيمانًا زيادةً على إيمانهم، وهم يفرحون بهذه السورة، وما أتت به من الفوائد الجليلة والفتوحات العظيمة، ويبشر بعضهم بعضًا بها.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾

وأما المنافقون فزادتهم السورة المنزلة شكًا وحيرةً ونفاقًا إلى نفاقهم وخبثًا إلى خبثهم واستمروا على الكفر حتى دخلوا به القبر، فالقرآن يزيد المهتدي هدىً، وأما الضال فلا يزيده إلا عمى.

﴿١٢٦﴾ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾

أولا يتفكر المنافقون أن الله يمتحنهم بالجهاد مع رسوله ﷺ كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون بالاستجابة لله وترك النفاق، ولا يرتدعون ويخافون من انكشاف أمرهم ولا ينتفعون بالعبر.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾

وإذا أنزل الله سورة على رسوله تكشف حال المنافقين وتفضح أمرهم وتهتك سترهم، نظر بعض المنافقين إلى بعض ريبةً وتدبيرًا للفرار من مجلس الرسول ﷺ يقولون: هل يراكم أحد من المؤمنين إذا فررتم متسلّلين؟ ثم هربوا إلى منازلهم خوفًا من الوحي أن يفضحهم، صرف الله قلوبهم عن الهدى والرشد؛ لأنهم أناس لا يفهمون ما أنزل الله على رسوله فَهْمَ تعقُّل وتدبر وقبول.

﴿١٢٨﴾ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

لقد جاءكم - أيها الناس - رسول كريم من جنسكم، تعرفون نسبه الشريف (للقراءة الأخرى أَنْفَسِكم أي: أشرفكم)، وأصله وصدقه وأمانته، يَشُقُّ عليه ما يشق عليكم، حريص على إيمانكم ونجاتكم وسعادتكم، رؤوف بالمؤمنين يسعى في إزالة كل شقاء وعناء، رحيم بهم، يوصل إليهم الإحسان والعطاء، فرأفته بالمنكسرة قلوبهم، ورحمته بمن آلمتهم ذنوبهم.

﴿١٢٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

فإن أعرضوا عن الاستجابة لك - أيها النبي - فقل: الله يكفيني بولايته ونصره عن كل أحد، فهو المستحق للألوهية المعبود وحده، وهو - سبحانه - رب العرش العظيم، الذي استوى عليه، يدبر أمر هذا العالم، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

مكية

ترتيبها ١٠

سورة يونس

آياتها ١٠٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

هذه الحروف المقطعة الله أعلم بمراده بها، ولها معانٍ جليلة، وهذه آيات القرآن الذي أحكمه الله وفصّله وبيّنه لعباده.

(٢) ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾

أكان إنزالنا الوحي على إنسان سببًا لتعجب الناس ودهشتهم، وهذا القرآن المنَزَّل على هذا الرسول ليحذر به العباد من عذاب الله إن عصوه، ويبشرهم بالثواب إن أطاعوه بالإيمان وعمل الصالحات، وأن الأجر العظيم مدخر لهم بما قدموا من خير، فلما نزل الوحي على الرسول ﷺ قال الكفار: هذا سحر أتى به ساحر ظاهر البطلان.

(٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما وأتقن بناءهما في مدة ستة أيام، ثم علا واستقر واستوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، وهو على عرشٍ يدبر أمر خلقه ويصرِّف شؤونهم، لا يشفع لديه شافع يوم القيامة إلا إذا أذن له في الشفاعة، ورضي عن المشفوع له، فوحِّدوا الله بالعبودية، وأفردوه بالألوهية، فهو الرب الخالق الرازق المستحق لذلك، أفلا تتعظون بالأدلة على وحدانيته وتعتبرون بالبراهين على ألوهيته؟

(٤) ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾

إلى الله وحده معادكم يوم القيامة - أيها الناس - وهذا موعد ثابت لا شك فيه، وهو الذي ينشئ الخلق أول مرة ثم يعيده بعد الموت، ليثيب الطائع على إيمانه بالله واتباعه رسوله ﷺ أعظم الثواب، وهذا جزاء عدل منه - سبحانه - والذين جحدوا بألوهية الله ورسالة نبيه في نار جهنم مع عذاب أليم موجع؛ بسبب ضلالهم وتكذيبهم.

(٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

الله وحده الذي جعل الشمس ضياءً للعالم، وجعل القمر نورًا للكون، فالضوء ملتهب حار، والنور مشع بارد، وأنزل القمر منازل في الأبراج معلومة، فبالشمس تُعرف الأيام، وبالقمر تُعرف الأعوام، وما أوجد الله الشمس والقمر إلا لحكمة عظيمة ودلالة واضحة على حسن خلقه وإتقان صنعه، يُوَضِّح البراهين لقوم يعلمون المقاصد في إيجاد الخلق وإنشاء الآيات.

٦ ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴾

إن في تعاقب الليل والنهار وكل ما خلق الله من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات وما فيها من جمال وإبداع ونظام وكمال لأدلة بيّنة على عظمة خالقها، يفهم هذه الأدلة من خشي ربه وخاف مولاه واتقى غضبه بفعل ما أحبّ.

٧ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾

إن الذين لا يطمعون في لقاء الله يوم القيامة ولا يعدّون لهذا اللقاء عدته من الإيمان والعمل الصالح، وأحبوا الحياة الدنيا واتخذوها عرضًا دون الآخرة وآثروها على ما عند الله والذين هم عن آيات الله الكونية والشرعية ساهون لاهون معرضون.

٨ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾

هؤلاء مصيرهم النار الحامية، خالدين فيها بسبب عملهم القبيح من كفر وذنوب وعصيان لعلاّم الغيوب.

٩ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

إن الذين آمنوا بالله وبرسوله وعملوا الأعمال الصالحة المشروعة بإخلاص ومتابعة يرشدهم الله بسبب إيمانهم لخيري الدنيا والآخرة، ويدلهم على أقوم السبل، ولهم في الآخرة جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها الأنهار، في دار القرار، محل الأبرار، بجوار العزيز الغفار.

١٠ ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

دعاء أهل الجنة في الجنة (سبحانك اللهم) والله يحييهم وتحييهم الملائكة، ويحيي بعضهم بعضًا بكلمة (سلام) لما فيها من الأمان والبِشْر والطمأنينة، وآخر دعائهم (الحمد لله رب العالمين) فالشكر والثناء لمن خلق العالم ودبره بما فيه، وأجزل العطاء لسائليه.

١١ ﴿ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾

ولو أن الله يعجل إجابة من دعاه بالشر كتعجيل إجابة من دعاه بالخير لهلك هذا الداعي، فنترك الذين لا يطمعون في لقائنا ولا يفكرون في البعث والنشور في ضلالهم يترددون وفي دنياهم يلعبون.

١٢ ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

وإذا أصابت الإنسان شدة تضرَّع إلى ربه، وشكا إلى مولاه في حال اضطجاعه على جنبه، أو قاعدًا أو قائمًا من قلة صبره وجزعه، فإذا كشفنا كربه، وفرَّجنا شدته استمر على لهوه الأول كأنه ما امتحن بشدة، ولا مرَّ به كرب، ونسي دعاءه لنا وكَشْفِنا لبلواه، وكما حُسِّن لهذا الإنسان بقاءه على هذا العناد والجحود، حُسِّن للذين أسرفوا في الذنوب والخطايا ما اقترفوه منها فاستمروا عليها.

١٣ ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

ولقد أهلكنا الأمم السابقة والأجيال الماضية التي كانت قبلكم بسبب كفرهم بالله وتكذيبهم لرسله، والرسل بُعثوا إليهم من الله بالحجج الواضحة والبراهين القاطعة على صدقهم، فلم تكن هذه الأمم لتصدق الرسل لاستيلاء الكفر على قلوب هؤلاء المكذبين، ومثل هذا الهلاك الذي أوقعناه بهذه الأمم نوقعه بكل فاجر متجاوز لحدود الله.

﴿١٤﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

ثم جعلناكم - أيها الناس - خلفاء في الأرض بعدما أهلكنا تلك القرون المكذبة؛ لنرى ماذا تعملون من خير وشر وصلاح وفساد، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء

﴿١٥﴾ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

وإذا قرأت آيات القرآن واضحات على الكفار، قال الذين لا يؤمنون بالحساب ولا يرجون الثواب ولا يخافون العقاب: أحضر لنا قرآنًا غير هذا القرآن، أو بدّله وحرّف معانيه بأن تجعل الحلال حرامًا والحرام حلالاً: والوعد وعيدًا، والوعيد وعدًا، وامح ما فيه من سب الأصنام وتسفيه الأحلام، فقل لهم أيها الرسول-: أنا لا أستطيع ذلك ولا ينبغي لي هذا، وإنما عملي أن اتبع هذا القرآن في كل أمر ونهي، إني أخشى من ربي إن خالفتُ أمره عذاب يوم القيامة المؤلم الشديد الموجع.

﴿١٦﴾ ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قل لهم - أيها النبي -: لو أراد الله ما قرأتُ هذا القرآن عليكم ولا أعلمكم الله بما فيه، فتيقنوا أني مرسل من الله لا من عند نفسي، وكما تعلمون، فقد عشت فيكم زمنًا طويلاً من قبل نزول القرآن ومن قبل أن أقرأه عليكم، ثم نزل عليَّ فيما بعد، فكيف لا تتدبرون بعقولكم، هذا الفرق بين حالي قبل نزول الوحي، وحالي بعده لتعلموا أن الأمر ليس إليّ ولا منّي بل من الله.

﴿١٧﴾ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

لا أشد ظلمًا من إنسان ادعى على الله دعوى كاذبة، أو نسب إلى ربه ما لا ينبغي له، أو جحد آيات الله، إن من يفعل ذلك فاجر وآثم، ومن هذا وصفه فلن ينال الفلاح ولا يَجِدُ الظفر أبدًا.

﴿١٨﴾ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ويعبدُ هؤلاء الكفار آلهة غير الله لا تجلب لهم نفعًا، ولا تدفع عنهم ضرًا، ويقول هؤلاء المشركون: إنما نعبد هذه الآلهة لتشفع لنا عند الله، فقل لهم - أيها النبي -: أتخبرون الله تعالى بشيء ما كان يعلمه من أمر هؤلاء السفهاء في السموات أو في الأرض؟ فلو كان هؤلاء الشفعاء ينفعونكم عند الله لكان أعلم بهم منكم، فتنزَّه الله وتقدَّس عما أشرك به هؤلاء معه في ألوهيته، وتعالى عن شركهم معه غيره، وهو الله الذي لا إله إلا هو.

﴿١٩﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

لم يكن الناس إلا على ملة واحدة، وهي التوحيد، ثم تفرقوا بعد ذلك على ملل شتى، فآمن بعضهم وكفر بعضهم الآخر، ولولا أن الله كتب على نفسه إمهال الفجار وعدم معاقبتهم في هذه الدار لوقع قضاؤه في الدنيا بإهلاك الظلمة ونجاة الطائعين.

﴿٢٠﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ ۖ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

ويقول الكفار الفجار: هلاّ أنزل الله على نبيِّه حجة واضحة نعلم بها صدقه فيما ادعى من النبوة، فقل لهم - أيها النبي -: لا يعلم الغيب - غير الله - أحدٌ من خلقه، فإن أراد أنزل حجة، وإن أراد لم ينزل، فالأمر له كله، فانتظروا - أيها الكفار - عاقبة أمورنا وما يقضي الله في شأننا بإهلاك الكاذب المعاند، ونصرة الصادق العابد، إني منتظر ما وعدني ربي من نصره وتأييده.

٢١ ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

وإذا أذاق الله الكفار فرجًا بعد شدة، ويسرًا بعد عسر، فإذا هم يكذبون بالرسالة ويستهزئون بآيات الله، قل - أيها النبي لهؤلاء الكفار -: الله أسرع استدراجًا لكم وأشد مكرًا بكم وأقوى عقوبة، والله يرسل الملائكة الحفظة إليكم ليكتبوا ما فعلتموه من مكر وإجرام؛ لنجازيكم عليه يوم القيامة.

٢٢ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

والله وحده هو الذي يسيّر الناس في البر على الخيول والجمال والبغال والحمير وغيرها، ويسيركم في البحر على السفن وغيرها، فإذا ركبتم في السفن وهبَّت ريح رُخاء هادئة وفرح بها الركاب، جاء السفينةَ ريحٌ عاصف شديدة مدمرة والتف الموج على السفينة من كل جهة، وأيقنوا أن الهلاك نازل بهم، توسلوا إلى الله وألحوا في الدعاء وطلبوا إليه النجاة، وأخلصوا في التضرع، وعاهدوه لئن أخرجهم من هذا الكرب؛ ليكونن من الشاكرين على نعمه بالإيمان به، وعمل الصالحات والتوبة من الذنوب.

٢٣ ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

فلما أخرجهم الله من الشدائد، وأنجاهم من الأهوال، وعادوا إلى البر إذا هم يفسدون في الأرض بالظلم والمعاصي، يا أيها الناس: إن عاقبة هذا الظلم والعدوان على أنفسكم، وإن وبال الذنوب عليكم، وإنما هي مجرد تمتع في الحياة الزائلة الفانية كأحلام النائم وبعدها تعودون إلى ربكم فيخبركم بما فعلتم، ويجازيكم على ما صنعتم، فأعدوا العدة بالشكر على النعمة والحذر من النقمة فما دُفع البلاء بمثل التوبة والدعاء.

٢٤ ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

إنما مثل الحياة الدنيا ومتعها الفانية ولذائذها الزائلة كمثل مطرٍ أنزله الله من السماء إلى الأرض، فأنبت الله به زروعًا وأشجارًا يأكل الناس حبوبها وثمارها، وحشائش تأكلها الدواب مختلط بعضه ببعض، حتى إذا بدأ حسن الأشجار وجمال الثمار وبهاء الأزهار وصارت الأرض في ثوب بهيج، واعتقد أهل هذه المزارع والحدائق أنهم قادرون على حصادها والانتفاع بها؛ لأنها في ملكهم وتحت تصرفهم، جاء القضاء من الله بهلاك الأشجار وبوار الثمار وذبول الأزهار في ساعة من ليل أو نهار، فصارت محصودة هشيمًا بعد الخضرة والنضرة كأنها ما كانت قائمة، بهيجة مخضرَّة قبل هذا الهلاك، فكذلك يقع الفناء على ما تفتخرون به من دنياكم الغرور، ومن متعها الخداعة، فيحصل الموت للأبناء مع ذهاب الأموال، وتفرُّق الأحباب، وخراب الدور، ودمار القصور؛ لأن الله كتب على الدنيا وأهلها الفناء، وكما وصف الله لكم حال الدنيا ونهايتها، وأوضح لكم مصيرها يوضح لكم - سبحانه - آياته البيّنات وأدلته الواضحات في كونه وشرعه ليتدبرها أولو الألباب، ويعيها ذوو البصائر.

٢٥ ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ۖ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

والله يدعو عباده إلى جناته بإرسال رسله وإنزال كتبه، ويوفِّق للاستقامة على أمره من شاء من خلقه، فيصير عمله خالصًا لوجه الله، صوابًا على سنة رسول الله ﷺ، فيستحق رضوان الله، فدعوة الله عامة، وهدايته خاصة؛ لأن الدعوة إقامة حجة، والهداية إيصال رحمة.

﴿٢٦﴾ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

للمحسنين في إيمانهم وعملهم الصالح الجنة وزيادة عليها، وهي النظر إلى وجه الله الكريم مع مغفرة ورضوان ولا يغشى وجوههم غبار ولا ذِلة ولا صغار ولا هوان، بل نضرة وسرور ونور وحبور، وهؤلاء الموصوفون بهذه الصفات هم أصحاب الجنة، الباقون فيها أبدًا في نعيم مقيم وملك عظيم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

والذين عملوا السيئات وكسبوا المعاصي من الكفر بالله وارتكاب محارمه وانتهاك حدوده يجازيهم الله: بكل سيئة اقترفوها بمثلها من العذاب في الآخرة، وتغشاهم ذِلة وهوان، ولا يمنعهم من عذاب الله مانع ولا يشفع لهم شافع، ولا يدفع عنهم العقاب دافع، كأنما غُطِّيت وجوههم بأجزاء من سواد الليل المظلم الحالك، وهم أهل النار الماكثون فيها مع النكال والصغار وغضب الجبار.

﴿٢٨﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

وتذكر ذلك اليوم، يوم نجمع الناس جميعًا للحساب والجزاء، ثم يقول الله للذين أشركوا به غيره: الزموا مكانكم ومعكم شركاؤكم الذين تعبدونهم في الدنيا من دون الله حتى يقضي الله بينكم، وفرّق الله بين المشركين وما كانوا يعبدون، وتبرأ من المشركين معبودهم، وقالوا لهم: ما كنتم إيانا تعبدون في الدنيا، بل كنتم كاذبين مفترين.

﴿٢٩﴾ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾

فكفى بالله شاهدًا على صحة ما نقول، يحكم بيننا وبينكم؛ لأنه يعلم الغيب والشهادة، ولقد كنا لا نشعر بعبادتكم لنا وكنا غافلين عنها؛ لأننا لا نملك نفعًا ولا ضرًا.

﴿٣٠﴾ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾

في ذلك المقام العظيم يوم الدين تفقد كل نفسٍ ما عملت وما قالت وما قدّمت، وترى حسابها أمامها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وعادوا كلهم إلى الله؛ ليحكم بينهم؛ لأنه ربهم وإلههم ومتولي شؤونهم، وهو الحكم العدل، فالسعداء في الجنة، والأشقياء في النار، وذهب عن الكفار ما كانوا يعبدونه من دون الله، فما نفعوهم ولا شفعوا لهم، ولا دفعوا عنهم العذاب.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾

قل - أيها النبي لهؤلاء الكفرة الفجرة -: من الذي يُنَزِّل عليكم الرزق من السماء بإنزال الغيث الهنيء المريء؟ ومن الذي يخرج لكم من الأرض أنواع الثمار والحبوب والفواكه والخضار متاعًا لكم ولأنعامكم؟ ومن الذي منحكم وهو قادر على سلبكم إياها من الأسماع والأبصار؟ ومن الذي يخرج الأحياء من الأموات، كالفرخ من البيضة، والأموات من الأحياء، كالبيضة من الدجاجة، والثمرة من الشجرة ونحوها؟ ومن الذي يصرِّف كل أمر في السماء والأرض من أمر الملائكة والجن والإنس والحيوان وكل مخلوق؟ اسألهم - أيها النبي - عن هذا كله فسوف يجيبونك، بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله وحده، فقل لهم: أفلا تحذرون من عذاب الله وتخشون عقابه إذا أشركتم به غيره، إذًا فوحِّدوه وأخلصوا له العبادة. وفي الآية استعمال الدليل العقلي، والحوار المنطقي، وذكر الأدلة الظاهرة لا الخفية، والفراغ من المقدمات ثم الوصول إلى النتائج والتدرج في الحجة.

٣٢ ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

فذلكم الذي هذا وصفه من الخلق والرزق والتدبير هو الله ربكم المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإذا كان هذا هو الحق فما سواه ضلال، إذًا فأنتم ضالون في عبادتكم غيره، فكيف تنحرفون من عبادته إلى عبادة سواه من الأوثان والأصنام وغيرها؟ وكيف تصرفون عن الحق إلى الضلال؟!!

٣٣ ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

كما كفر من كفر وأعرض من أعرض حقت كلمة الله الكونية وحكمه العدل وقضاؤه النافذ على من خرج عن طاعته، أنه لا يُصَدِّق بعبوديته ولا يذعن لوحدانيته، ولا يؤمن برسولهﷺ، ولا يتَّبع هداه.

٣٤ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

قل - أيها الرسول للمشركين -: هل هناك أحدٌ من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله يستطيع أن ينشئ خلقًا من العدم، ثم يعيده على صورته الأولى بعد الفناء؟ يعني يوجد المعدوم ويرد الفاني إلى الوجود!! فهذا شيء لا يستطيعونه، ومحال لا يفعلونه، قل لهم: لكن الله وحده هو الذي يخلق الشيء من العدم، ثم يفنيه بعد الوجود، ثم يعيده كما كان، فكيف تنصرفون عن عبادة من هذا وصفه من القدرة والحكمة في الخلق والإبداع إلى عبادة سواه ممن لا يملك ذلك؟.

٣٥ ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

قل - أيها الرسول للمشركين -: هل أحد من آلهتكم التي تعبدونها ترشد إلى الطريق المستقيم؟ فهم لا يستطيعون ذلك، ولكن الله وحده يهدي من ضلَّ عن الهدى، ويرشد من انحرف عن الحق، فأيهما أحق بالاتباع؟ من يهدي للحق لتمام علمه وكمال حكمته ونفاذ قدرته؟ أم من لا يستطيع الهداية للحق لجهله وضلاله وعدم علمه؟ وهي آلهتكم المزعومة التي لا تهتدي لشيء، ولا تهدي غيرها، بل هي بحاجة إلى مَنْ يهديها، فهي لا تَهدي ولا تهتدي بل تُهدى، فلماذا سويتم بين الله الهادي - جلَّ في علاه - وبين هذه المخلوقات القاصرة العاجزة الحائرة؟ فهذا حكم باطل، وقضاء جائر.

٣٦ ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

وما يتبع أكثر هؤلاء المشركين في عبادتهم الأصنام واعتقادهم بنفعها وضرها، وأنها تقرِّب من الله إلا ظنًا ووهمًا، بلا دليل واضح ولا برهان قاطع، والظن لا ينفع في إقامة حق أو دفع باطل، بل لابد من اليقين الذي يشفي من الشك، ويعصم من الحَيْرة، إن الله عليم ومطلع على عمل هؤلاء المشركين، وسوف يحاسبهم عليه يوم القيامة.

٣٧ ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ولا يمكن لأحد من البشر أن يأتي بهذا القرآن من عند غير الله، فهو فوق قدرة البشر، ودلائل الإعجاز فيه لا يستطيعها أحدٌ من الناس كائنًا من كان، ولكن الله أنزل القرآن يصدق الكتب التي قبله؛ لأن دين الأنبياء واحد وهو الإسلام، وفي هذا القرآن أتم البيان وأوضح البرهان لما شرعه الله للإنسان، ولا شك في أن هذا القرآن كلام الله أوحاه إلى رسوله ﷺ وليس كلام البشر.

٣٨ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

بل يقول الكفار: إن النبي افترى القرآن من عند نفسه وهو بشر مثلهم، فقل لهم أيها النبي: تعالوا أنتم بسورة واحدة من جنس هذا القرآن في بلاغته وإعجازه، وفصاحته وإيجازه ونظمه وهدايته، وإشراقه وبراعته، واستعينوا على ذلك بكل أحد من الإنس والجن ليعينكم على الإتيان بسورة إن كنتم صادقين في ادعائكم القدرة على معارضته.

﴿٣٩﴾ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

بل إن الكفار بادروا إلى تكذيب القرآن أول ما سمعوه قبل أن يفقهوه، وردّوه لأنهم جهلوا حقائقه، والإنسان عدو ما جهل، وإلا لو فهموه حق فهمه لوصل التصديق به سويداء قلوبهم، ثم لم يأتهم بعد حقيقة ما وعدوا به في هذا القرآن من بعث وجزاء، وجنة ونار، وثواب وعقاب، ومثل تكذيبهم هذا كذّب مَنْ قبلهم من الأمم بكتب الرسل السابقين، فتأمل - أيها النبي - ماذا كانت عاقبة من كذَّب وظلم نفسه بمعصية ربه، كيف دمَّرناهم بأنواع العقوبات.

﴿٤٠﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ومن الناس من يُصَدِّق بالقرآن ومنهم من يكذّب به حتى يلقى ربه مكذِّبًا، والله أعلم بالمفسدين الذين ردوا الحق واتبعوا الباطل، واستكبروا على الهدى وأعرضوا عن الدليل، وسوف يجازيهم على سوء ما فعلوه.

﴿٤١﴾ ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

وإن كذَّبك هؤلاء المشركون - أيها النبي - فقل لهم: لي ديني وأنا مسؤول أمام الله عن عملي، وليس عليكم منه شيء، ولكم دينكم وسوف تُسألون عن عملكم عند الله، لا تُؤاخذون بما عملتُ ولا أُؤاخذ بعملكم، فكلٌّ بعمله مرتهن فمحاسب.

﴿٤٢﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ومن الكفار مَنْ يستمعون لتلاوتك القرآن، ومواعظك سماعًا لا قبول فيه ولا استجابة، وإنما كسماع الدواب، أفأنت - أيها الرسول - تستطيع إسماع الصم؟! فكذلك لا تستطيع هداية هؤلاء المعرضين، فهم صمٌّ عن سماع الحق، سماع من يعقل، وإنما يسمع الصوت بلا معنى، والنداء بلا اهتداء.

﴿٤٣﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

ومن الكفار من ينظر إليك - أيها الرسول - وإلى براهين رسالتك القاطعة، ولكنه لا يبصر ما أعطاك الله من أنوار الهداية، ولا يدرك حقائق ما عندك من علم نافع ووحي مبارك، أفأنت - أيها الرسول - تستطيع أن توجد للعمي أبصارًا يرون بها الطريق؟ فكذلك لا تستطيع أن تهدي عمي البصائر إلى الصراط المستقيم، وإنما ذلك لله وحده، فهو يهدي من يشاء، ويضل من يشاء.

﴿٤٤﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

إن الله لا يظلم العباد شيئًا بإضافة سيئاتٍ عليهم ما عملوها، أو بنقص حسنة من حسناتهم أتوا بها، فهو لا يظلم ولا يهضم أحدًا، ولكن العباد يظلمون أنفسهم بالتكذيب والعصيان والظلم والعدوان، فالله يريد نجاتهم، وهم يسعون في إهلاك نفوسهم!!

﴿٤٥﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾

ويوم يجمع الله هؤلاء الكفار ليوم لا ريب فيه ليوفيهم أعمالهم، كأنهم قبل هذا الجمع لم يعيشوا في الحياة الدنيا إلا مقدار ساعة من نهار!! يعرف بعضهم بعضًا كأنهم في الدنيا، ثم ذهبت تلك المعرفة بينهم وانتهت تلك الساعة، قد خسر المكذِّبون لله ورسله واليوم الآخر، ولم يوفقوا للهداية، ولم يُسدّدوا للإصابة، ولم يلهموا الرشد.

﴿٤٦﴾ ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾

وإما أن يريك الله - أيها الرسول - في حياتك بعض المصائب التي تحلُّ بأعدائه من العقاب الشديد والبطش القوي، أو يتوفاك الله إليه قبل أن ترى ما يحلُّ بهم من النكال، فإلى الله وحده يعود هؤلاء الكفار، والله شاهدٌ على أعمالهم، مطلع عليها، وسوف يجازيهم بها الجزاء الأوفى.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ولكل أمة سبقت من الأمم رسول أرسله الله إليهم برسالة من عنده، مثلما أرسل الله محمدًا ﷺ إلى أمته، فإذا جاء الأمة رسولها بالرسالة وأقام عليهم الحجة قضى الله بينهم بالعدل، فالثواب لمن آمن، والعقاب لمن كفر، أو المعنى: إذا جاء رسولهم في الآخرة وقع الجزاء بلا ظلم، فلا يَهْلِك مؤمن ولا ينجو مكذِّب؛ جزاء وفاقًا.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ويقول الكفار للنبي المختار: متى تقوم الساعة في ليل أو نهار؟ إن كنت - أيها النبي - وأتباعك صادقين أن القيامة ستقوم، فأخبرونا بالوقت المحدّد لها!!

﴿٤٩﴾ ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

قل - أيها الرسول للكفار-: أنا عبدٌ مأمور لا أستطيع أن أجلب لنفسي منفعة ولا أدفع عنها مضرة، فكل ذلك إلى الله وحده، يقدِّر عليَّ وعليكم ما شاء، لكل جيل وأمة ودولة وشعب أجل، فإذا انتهى أجلهم فني الجيل، وهلكت الأمة، وسقطت الدولة، وباد الشعب بلا تأخير ساعة فيمهلون، ولا تقديم ساعة عن الأجل فيهلكون.

﴿٥٠﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قل - أيها الرسول - للكفار: أخبروني إذا أنزل الله بكم العذاب في ليل أو نهار لماذا تريدون تعجيل عذابكم والعذاب مكروه تنفر منه القلوب، وتأباه الطبائع، فما المقتضي لاستعجالكم له؟!!

﴿٥١﴾ ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

أبعدما يقع بكم العذاب، وينزل عليكم العقاب تصدقون في زمن لا ينفعكم فيه التصديق، ويُقال لكم حينها: الآن تصدِّقون وكنتم قبل نزول العذاب تريدون تعجيله، فأنتم لتكذيبكم بالعذاب واستبعادكم نزوله طلبتم تعجيله عنادًا.

﴿٥٢﴾ ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

ثم يُقال لمن ظلم نفسه بالشرك والمعاصي: تجرعوا العذاب الشديد الدائم في نار جهنم؛ جزاء على عملكم السيئ من كفرٍ وتكذيب، ومحاربة لله ولرسوله ﷺ.

﴿٥٣﴾ ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

ويسألك الكفار - أيها الرسول - عن عذاب يوم القيامة: هل هو حق لا شك في وقوعه؟ فقل لهم: نعم وربي إنه لحق لا شك فيه، وأنتم لا تعجزون الله أن يبعثكم بعد الموت فيجازيكم؛ لأنه قديرٌ على ذلك، وأنتم في ملكه وتحت سلطانه وتصرفه.

﴿٥٤﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۚ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ولو كان لكل نفسٍ كفرت بالله كل ما في الأرض مما له ثمن وقيمة وأمكنها أن تقدمه فديةً من عذاب الله يوم القيامة لفعلت، ولكن لن تقبل للكافر فدية ولا شفاعة ولا تنفعه خلة وليس له نصير، وأخفى الكفار حسرتهم يوم شاهدوا العذاب، وحكم الله تعالى بالعدل، ولم يظلموا شيئًا بزيادة سيئات ما عملوها، أو بنقص حسنات أتوا بها.

﴿٥٥﴾ ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ألا إن جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض ملك لله تعالى يتصرف فيه كيف يشاء؛ لأنه خالق كل شيء، فلا يشاركه في الملك أحد، مثلما لم يشاركه في الخلق أحد، ألا إن يوم القيامة الذي وعد الله به وما فيه من ثواب وعقاب حق لا شك فيه، ولكن أكثر الناس جاهل بهذا الأمر لا يؤمن به ولا يدرك حقيقته.

٥٦ ﴿ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

الله وحده هو الذي يحيي الأموات ويميت الأحياء، ويُوجِد من العدم، كما لا يعجزه الإحياء بعد الإماتة كذلك لا تعجزه الإماتة بعد الإحياء، ثم يعود إليه الأموات ليحاسبهم بعد أعمالهم.

٥٧ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

يا أيها الناس، قد أنزل الله لكم القرآن أعظم موعظة، يدلكم على الهدى ويحذركم من الردى، ففي القرآن أجلُّ المواعظ، وأعظم النصائح وأنفع الوصايا لمن صحت بصيرته، واستنار عقله، وفي القرآن دواءٌ من أمراض الشك والشرك والنفاق والشهوات والشبهات، وفيه تمام الرشد لمن اتبعه وتدبر آياته، فإنه يدل على الصواب من أيسر باب، وهو رحمةٌ لمن اهتدى بهداه، يعصمه من الزيغ وينجيه من المهالك، ويمنعه من الضلال، ويبعده عن الشقاء، لكن لمن صدَّق به، وأخذه بقوَّة وأقبل عليه بحب.

٥٨ ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾

قل -أيها الرسول- لجميع البشر: افرحوا بما أنزل الله من وحي مبارك، وآيات بيّنات وحِكَم بالغات على سيد ولد آدم ﷺ، فهذا هو الفضل والشرف والعز والنجاة والرحمة العاصمة من الزيغ والهوى والهلاك، فالفضل زيادة وزيادة وسعادة وسيادة، والرحمة عصمة ونجاة وتوبة، فبالفضل تنالون أجلَّ النعم، وبالرحمة تسلمون من كل النقم، وهذا الذي ينبغي أن يفرح به لا بحطامٍ زائل زائف زهيد، ولا بزهرة دنيا فانية ذاهبة يحبها عبيد الدرهم والدينار، ويعشقها الأغبياء ممن جهل حقيقة ما أنزله الله الواحد القهار.

٥٩ ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ﴾

قل -أيها الرسول- لهؤلاء الكفار الفجار: أخبروني عن الرزق الذي أنزله الله عليكم من حيوان ونبات ومعادن وخيرات، فحلّلتم بعضه وحرّمتم بعضه بلا حجة من الله ولا برهان صحيح، هل أباح الله لكم هذا التشريع من تحليل وتحريم؟ أم أنتم تقولون على الله كذبًا وتنسبون باطلاً وتدعون ذلك بهتانًا وزورًا؟

٦٠ ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾

ماذا يظن هؤلاء الكفرة المجرمون أن الله فاعلٌ بهم يوم القيامة وقد نسبوا إليه - سبحانه - تحريم ما لم يحرم من الأقوات والأرزاق، وادعوا عليه - تعالى - أقوالاً باطلة من التحريم والتحليل بلا دليل قاطع ولا برهان ساطع؟ أيظنون أن الله سوف يسامحهم ويغفر لهم؟ نعم إن الله متفضل بالتوبة على من تاب، وغفور لمن عاد إليه وأناب، وهو متفضل على كل البشر، فلم يعجِّل عقوبته لمن كفر، بل أخَّرها لهم يوم العرض الأكبر، ولكن أكثر الناسِ لا يشكرون الله على فضله من نعم حاصلة، ونقم مصروفة، وعقوبة مؤجلة، وتوبة متقبلة.

٦١ ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴾

وما تكون - أيها الرسول - في أمرٍ من أمورك التعبدية والدنيوية من تلاوة للقرآن ونحوها، وما يعمل عامل من عمل كَبُرَ أو صغر، خفي أو ظهر إلا والله رقيب عليه، مطلع على صاحبه محصيه، إذ يزاوله ويأخذ فيه، وما يغيب عن علم الله من وزن نملة وقدر ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر وأدق ولا أكبر وأجلّ الأشياء إلا في كتاب مسطور واضح الكتابة، يحفظ ما يكتب فيه ليوم العرض على الله، فيراه العبد ويقرؤه بنفسه ويُحَاسَب عليه إن خيرًا فخير، وإن شرّاً فشر.

﴿٦٢﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

ألا إن أولياء الله الذين أخلصوا العبادة له والاتباع لرسوله ﷺ فقدموا مراد الله على مرادهم، وسعوا فيما يحبه الله ورسوله، واجتنبوا كل ما نهى الله عنه ورسوله هؤلاء لا خوف عليهم فيما يستقبلونه في الآخرة، بل لهم الأمن من الله فلا يحزنهم الفزع، ولا يصل إليهم أذى، ولا يحزنون على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، فقد ضمن الله لهم السعادة والرضا مع النعيم المقيم والأجر العظيم، فمن أراد الحياة الطيبة والفلاح الأبدي والفوز الدائم فعليه بطاعة الله والاهتداء بهدي رسوله النبي الأمي ﷺ؛ ففي ولاية الله كمال العز وتمام الفلاح ونهاية الفوز وغاية الرشد.

﴿٦٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾

هؤلاء الأولياء آمنوا بالله ربّاً وإلهًا ومعبودًا، فعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه وصدقوا رسوله ﷺ فاتخذوه أسوةً حسنة لهم في كلِّ شأن من شؤونهم، وكانوا يتقون الله في كل أمر بامتثال فعله، وفي كل نهي بامتثال تركه، فيعملون الطاعة؛ ابتغاء وجه الله، ويتركون المعصية خوفًا من عذاب الله.

﴿٦٤﴾ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

لهؤلاء الأولياء المخلصين الصادقين بِشارةٌ من الله عظيمة بما يسرهم في الحياة الدنيا من السعادة، والحياة الطيبة والأمن والرضا والقبول وحسن الذكر واستقامة الحال وصلاح الأمور، ولهم البشرى في الآخرة بغفران الذنوب، وستر العيوب، وجوار علاّم الغيوب في جنات ونهر وقرة عين ومقام آمن وفوز عظيم، وهذا وعد من الله لا يُغيَّر ولا يُبدَّل، وهذا الذي حصلوا عليه هو أجلُّ المطالب، وأعظم المقاصد؛ لأن النجاة من كل محذور والفوز بكل محبوب مطلوب مرغوب فيه.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

ولا يحزنك - أيها الرسول - قول الكفار في الواحد القهار من الافتراء عليه بالإشراك معه غيره لا إله إلا هو، ونسبة الولد والصاحبة إليه - تعالى - عن ذلك، ووصفه بما لا يليق تبارك وتقدَّس، فهو - سبحانه - المتفرد بالألوهية والربوبية، وله الكمال المطلق والغنى التام والقوة الغالبة والقدرة النافذة والحكمة البالغة والرحمة الواسعة، وهو سميع لكل قول، عليمٌ بكل فعل.

﴿٦٦﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

ألا إن كل من في السموات ومن في الأرض من ملائكة وجن وإنس وحيوان ونبات وجماد خلقٌ الله وملك له تحت تصرفه وتدبيره، لا يخرج عن ملكه أحد، وأي شيء يتبع المشركون؟ وأي شيء يعبدون ويدَّعون؟ ما يتبعون إلا الشك؛ لأنهم أهل شرك، وهم يكذبون فيما ينسبونه إلى الله، وفي شركهم مع الله، وفي وصف الله بما ينزّه عنه سبحانه.

﴿٦٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

الله وحده الذي خلق لكم الليل وهيأه لكم للراحة والنوم الهنيء والهدوء التام من تعب الكسب والعمل في النهار، وخلق لكم النهار بنور شمسه لتبصروا فيه، وتعملوا في معاشكم ومصالحكم من طلب علم وبحث عن رزق وذهاب وإياب، إن في آية الليل وآية النهار وما فيهما من عجائب القدرة وتمام الحكمة لأدلة واضحة وبراهين ساطعة على أن الله وحده هو المستحق للعبادة، وهذه الآيات يستفيد منها من يسمع الحجج، ويتفكر فيها ويعمل بمقتضى ذلك من العبودية لله وحده.

﴿٦٨﴾ ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

قال الكفار: إن الله -جل في علاه- اتخذ ولدًا، كقول المشركين: الملائكة بنات الله، وقول اليهود: عزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، تعالى وتقدَّس عن ذلك وتنزَّه عن هذا الافتراء، فهو الغني عن كل أحد؛ لأنه فردٌ صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فلا يحتاج إلى صاحبة ولا ولد ولا منفعة أحد، غني عما سواه، وما سواه فقير إليه، وكل ما في السموات والأرض خلق وملك له، فكيف يكون له ولد ممن خلق، والكل مملوك له، وليس عند من أشرك به دليل على فريته ولا برهان على كذبته، أتقولون على الله كلامًا باطلاً وتدعون دعاوى كاذبة لا تعلمون حقيقتها ولا صدقها؟!!

﴿٦٩﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

قل -أيها النبي-: إن الذين يدَّعون على الله الكذب باتخاذ الشريك أو الولد والصاحبة لا ينجون من عذاب الله ولا يفوزون برضوانه، فلا يدركون المطلوب، ولا يسلمون من المرهوب.

﴿٧٠﴾ ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

إن هؤلاء الكفار إنما يتمتعون في هذه الحياة الدنيا مثل متاع البهائم؛ لأن من عاش بلا إيمان فقد أشبه الحيوان، فإذا انقضت حياة هؤلاء الفجار فمصيرهم إلى الجبار؛ ليصليهم حرَّ جهنم الشديد المؤلم الموجع الدائم بسبب كفرهم وتكذيبهم للرسل وجحدهم للآيات، فهم في الدنيا تعساء، وفي الآخرة أشقياء.

﴿٧١﴾ ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾

واقصص - أيها النبي - على الكفار خبر نوحٍ ﷺ مع قومه يوم قال لهم: إن كان عَظُم عليكم قيامي بإنذاركم وتحذيركم من عذاب الله وشَقَّ عليكم تذكيري إياكم بحجج الله وبراهينه، وضقتم بذلك ذرعًا، فعلى الله وحده أعتمد، وبه أثق، وعليه أتوكَّل، فخذوا العدة وتهيؤوا واطلبوا من شركائكم مساعدتكم، ثم لا تجعلوا أمركم سرًّا مستترًا بل ظاهرًا علنًا، ثم عجِّلوا لي عقوبتكم الموعودة التي تستطيعون عليها، واجتهدوا في كيدي غاية ما تقدرون عليه، ولا تؤخروا حربكم لي، ولا تمهلوني، وهذا غاية التحدي من نوح لقومه ثقةً بربه.

﴿٧٢﴾ ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

فإن كذَّبتم برسالتي وكفرتم بديني فأنا لم أشق عليكم بطلب أُجْرةٍ من أموالكم على دعوتي، بل كانت خالصةً لوجه الله، والله وحده هو الذي يثيبني على عملي، وأنا مأمور بطاعته والانقياد لأمره، فأنا عبدٌ رسول مأمور من ربي -عز وجل-.

﴿٧٣﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾

فكذَّب قوم نوح برسالة نوح وعصوه وخالفوا أمره، فنجاه الله ومن آمن معه من الطوفان في السفينة، وأغرق المكذبين بالطوفان، وجعل الله المؤمنين يخلفون الكفار في الأرض، ويخلف بعضهم بعضًا، كلما ذهب جيل جاء جيل، فتأمل وتفكَّر في مصير المكذبين الذين أنذرهم نوح العذاب فما استجابوا فأُهلكوا.

٧٤ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

ثم أرسل الله بعد نوح رسلاً إلى أقوامهم فأتى الرسل بالحجج الواضحة من الله الدالة على ألوهية الله وصدق هذا الرسول، فما كان لهؤلاء الأقوام أن يُصَدِّقوا رسلهم، ويستجيبوا لما كذّب به قوم نوح والأمم الماضية الكافرة، فكما ختم الله على قلوب المكذبين من السابقين كذلك يختم الله على قلوب المكذبين اللاحقين، ممن كذب محمدًا ﷺ فلا يستجيبون له.

٧٥ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

ثم أرسل الله بعد الرسل السابقين موسى وأخاه هارون - عليهما السلام - إلى فرعون وقومه بآيات الله البينات، والمعجزات الدالة على قدرة الله كاليد والعصا، فأعرضوا واستكبروا عن الحق، وكذبوا بالصدق، وكانوا فجرة مكذبين، مردة متجبرين.

٧٦ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

فلما أتى موسى وهارون بالحق الدال على صدقهما كذّب فرعون وقومه وقالوا: إن الأدلة التي أتى بها موسى والمعجزات سحر واضح ظاهر، وليست من عند الله -عز وجل-!!

٧٧ ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾

فتعجب منهم موسى من تكذيبهم بالأدلة القاطعة، وقال لهم: كيف تدَّعون أن ما جئتُ به من حق واضح وصدق بيّن سحر ظاهر ظلمًا منكم وزورًا، ولو كنتُ ساحرًا ما انتصرت ولا ظفرت، فالساحر ينكشف أمره ويظهر كذبه ويبين زوره ويفتضح حاله.

٧٨ ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

قال فرعون وقومه لموسى: هل أتيتنا لتردنا عن عبادة الآباء بدين جديد مختلق من عندك وقصدك أنت وأخوك هارون السلطة والمنصب والجاه والملك في الدنيا، ولم تقصد إصلاح عبادة الناس، ولن نصدِّق بما جئتما به ولا نقر لكما. وهي تهمة يقولها كل طاغية لكل داعية إذا دعا إلى الإصلاح قالوا: له مآرب أخرى من جمع المال والشهرة والتصدر، وإنما جعل دعوته غطاءً لمقاصده، فانظر كيف تشابهت قلوبهم.

٧٩ ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

وقال فرعون لقومه: احضروا لي كل ساحر متقن للسحر عالمٍ بأساليبه؛ ليحارب به موسى ﷺ.

٨٠ ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾

فلما حضر السحرة واجتمع الناس قال موسى لسحرة فرعون: اطرحوا على الأرض ما معكم من حبال وعصي.

٨١ ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

فلما وضعوا على الأرض الحبال والعصي، قال لهم موسى: إن الذي وضعتموه هو السحر، وإن الله سيذهب بما جئتم به وسيحبطه، إن الله لا يصلح عمل من سعى في الأرض خرابًا، ومن بغى وتعدَّى، بل يجعل كيده في ضلال، وعمله إلى وبال.

٨٢ ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾

وينصر الله الحق ويرفع شأنه ويجعل العاقبة له على الباطل بكلماته الكونية القدرية، وبأمره الشرعي، ولو كره ذلك أهل البغي والفساد والزيغ والعناد، فالله غالبٌ على أمره.

٨٣ ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾

فما اتبع موسى ﷺ وصدّق به إلا طائفة من بني إسرائيل، وهم متسترون بإيمانهم، خائفون من بطش فرعون وقومه على حذر أن يصدهم بالعذاب عن طريق الهداية، إن فرعون لجبّار عنيد متكبر مريد، متجاوز للحد في الظلم والعناد والبغي والفساد.

٨٤ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾

وقال موسى لقومه: إن كنتم آمنتم بالله وصدقتموني فثقوا بنصره، واعتمدوا عليه، وفوِّضوا الأمر إليه، فسوف ينصركم إن كنتم صادقين في الإذعان له والانقياد لأمره تعالى وحسن الطاعة له.

٨٥ ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فقال قوم موسى له: على الله وحده لا شريك له فوَّضنا الأمر واعتمدنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ربنا لا تنصر الكفار علينا فيحسبون أنهم على حقٍ، وأنّا على باطل، ويظن الناس أنّا لسنا صادقين.

٨٦ ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

وأنقذنا برحمة منك ورعايةٍ وعنايةٍ من فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا يعذبونهم أشدَّ العذاب.

٨٧ ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّـَٔا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

وأوحى الله إلى موسى وهارون أن اجعلا لقومكما بيوتًا في مصر للسكن والإقامة، وهيئوا فيها محاريب للصلاة عند الخوف من فرعون، وحافظوا على الصلوات المفروضة، ولا تتركوها للخوف من البطش. وإخفاء العبادة وقت الخطر وارد ومباح، وبشِّر من أطاع ربه وأخلص له العبادة وفوَّض الأمر إليه بالنصر والتمكين والإمامة في الدين، ورضا ربّ العالمين.

٨٨ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾

ودعا موسى ربَّه فقال: يا ربنا، إنك رزقت فرعون ومنحته وأشراف قومه من زخرف الدنيا ولذائذها وزهرتها فلم يؤمنوا بك ولم يتبعوا رسولك، بل استعانوا بالنعمة على المعصية والصد عن سبيلك، فيا ربنا، اطبع على قلوبهم واختم عليها فلا تقبل الإيمان ولا تنشرح للحق، فلا يصدقوا بالرسالة ولا يؤمنوا بك إلهًا واحدًا حتى يحل بهم الخزي والعذاب، ويقع بهم العقاب جزاءً لقبح أفعالهم وسوء أعمالهم.

٨٩ ﴿ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

قال الله - تعالى - لموسى وهارون: قد أجبتُ دعوتكما في معاقبة فرعون وقومه، وكان موسى يدعو وهارون يؤمِّن، فنسب الدعاء إليهما، ثم قال - تعالى - لهما: فاستمرا على الاستقامة على طاعة الله والدعوة إلى الإيمان به ولا تفعلا فعل من جهل أمر الله وكفر به، ولا تشابها أعداءه في الصد عن سبيله وترك عبوديته.

٩٠ ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

وسهَّل الله عبور البحر لبني إسرائيل فخرجوا منه سالمين ظافرين، فسار فرعون وجنوده وراءهم ظلمًا وعدوانًا ومحادةً لله ورسوله، حتى إذا وقع في الهلاك وأحاط به الموج من كل مكان قال فرعون: الآن صدَّقتُ بأن لا إله إلا الله الذي صدَّقت به بنو إسرائيل، وأصبحتُ من الموحِّدين المنقادين الطائعين.

٩١ ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾

الآن أسلمت يا فرعون لما وقعت في الهلاك، وقد كذَّبت قبل هذا وحاربت موسى وأفسدت في الأرض وصددت عن سبيل الله؟ فلا توبة مقبولة لك في ساعة الموت، فقد فات الأوان، وأغلق الباب، ووقع بك موعود الله من النكال والجزاء.

٩٢ ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

فاليوم نخرج جسمك من البحر سليمًا؛ ليراك الناس وتكون عبرةً لمن اعتبر وعظةً لمن اتعظ، ومصائب قومٍ عند قوم فوائد، وكثير من العباد غافلون عن أدلة الله وحججه لا يتدبرونها ولا يفقهونها بل يمرون عليها معرضين.

٩٣ ﴿ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

ولقد اختار الله لبني إسرائيل منازل مباركة، وأنزلهم أرضًا صالحة في الشام ومصر، ورزقهم من خيرات الأرض أحسن الثمرات وأطيب المأكولات، فأمن لهم السكنى والطعام والأمن مع النصر والتمكين، فما تفرقوا في أمر دينهم وتباغضوا وتحاسدوا إلا من بعد ما جاءهم الوحي الداعي لإلفتهم واجتماعهم، ومن ذلك نبوة محمد ﷺ في التوراة، فكفروا بها عنادًا وحسدًا، وسوف يحكم الله في أمرهم يوم القيامة فينجي من آمن، ويعذِّب من كفر، فالموعد عنده، والحساب لديه والجزاء عليه.

٩٤ ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾

فإن كنت - أيها الرسول - في ريب من هذه الأخبار التي أوحيناها إليك فاسأل أهل الكتاب تجد مصداق ذلك في التوارة والإنجيل، فذلك مذكور في كتبهم، لقد جاءك العلم الصادق والدليل القاطع على صدق هذه الأخبار وعلى صحة ما أنزلته إليك، فلا تكن ممن شك في ذلك وداخله ريب وحيرة.

٩٥ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

ولا تكن - أيها النبي - ممن كذَّب بالحجج التي أنزلها الله، وحاشاه ﷺ من ذلك، ولكن إذا حُذِّر هو وهو إمام المصدِّقين فكيف بغيره من الشاكين؟ ومن جحد ما أنزل الله من آيات بيِّنات وبراهين ساطعات سخط الله عليه وعذَّبه وطرده من رحمته وأصلاه ناره.

﴿٩٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

إن الذين سبق عليهم القضاء بطردهم من رحمة الله وكتب بشقائهم في قدر الله، لن يصدقوا بآيات الله ورسله، ولا يعبدونه ولا يوحِّدونه حتى يحق فيهم قضاء الله فيعذبوا.

﴿٩٧﴾ ﴿ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾

ولو جاءت الكفار كل عظةٍ ووصلتهم كل عبرة ما آمنوا حتى يشاهدوا العذاب ويعاينوا العقاب، حينئذ لا ينفعهم الإيمان؛ لأنه فات الأوان.

﴿٩٨﴾ ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾

فهلاّ كانت قرية آمنت بربها قبل نزول العذاب فنفعها إيمانها لما عاينت العذاب إلا قوم يونس بن متى، فإنهم صَدَقوا في إيمانهم وتوبتهم من ذنوبهم، فأزال الله عنهم عذاب الخزي بعد أن أوشك أن يقع بهم، وأمهلهم في الدنيا يتمتعون متاعًا حسنًا حتى نهاية أعمارهم في هذه الحياة، وهذه من بركة التوبة، صَرْفٌ للعذاب عنهم وحياة سعيدة في الدنيا، وأجرٌ عظيم في الآخرة.

﴿٩٩﴾ ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾

ولو أراد ربك – أيها الرسول – لآمن كل من في الأرض ولم يكفر أحد، ولكن اقتضت حكمته أن يؤمن قوم ويكفر قوم، وليس في مقدورك أن تُكْرِه الناس على الإيمان، فالهداية بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

﴿١٠٠﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾

وما تستطيع نفس وما يحصل لها أن تؤمن بالله إلا إذا شاء الله ووفقها لهذا الإيمان به – جل في علاه – فليست هداية التوفيق إليك، ولكن إلى الله وحده، والله يجعل غضبه وعذابه ونقمته على من لم يعقل أمره ولم يفهم رسالته التي أرسل بها رسله عليهم السلام.

﴿١٠١﴾ ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾

قل – أيها النبي– للناس: تفكروا في خلق السموات والأرض وما فيهما من عبر للمعتبرين وآيات للمتدبرين، ولكن الآيات المنزلات والرسل المبعوثين بالمعجزات لا ينتفع بهم من كفر بالله وأعرض عن دينه وصد عن سبيله وتكبر على أمره، وإنما تنفع المعتبر المنقاد لطاعة الله.

﴿١٠٢﴾ ﴿ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴾

فهل ينتظر هؤلاء الكفار إلا وقت نزول العقاب وحلول العذاب مثلما وقع بمن كفر قبلهم؟ قل لهم – أيها النبي –: انتظروا عذاب الله إني منتظر معكم حلول هذا العقاب بكم، ومنتظر نصر الله لي عليكم كما وعدني، فأنا أنتظر رحمته وأنتم تنتظرون نقمته.

﴿١٠٣﴾ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

ثم ينجي الله رسله وأتباعهم من المؤمنين وقت نزول العذاب بالكافرين، وهذه سنة الله أن ينجي كل مؤمن من العذاب وممن أنجاهم محمدًا ﷺ وأتباعه إلى يوم الدين.

﴿١٠٤﴾ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قل - أيها النبي- للناس: إن كنتم في شك من صدق دعوتي وصحة رسالتي فأنا ثابت على ديني ومبدئي؛ لأني على يقين من استقامة طريقي، وسلامة نهجي، ولا أعبد ما تعبدونه من أصنام وأوثان، ولكنني أعبد الله الواحد الأحد الذي يميتكم مثلما أحياكم، ويبعثكم ليحاسبكم، وأمرني ربي أن أكون من المصدقين بشرعه العابدين له المنقادين لأمره.

﴿١٠٥﴾ ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يأمرك ربك - أيها النبي - أن تستقيم على دين الإسلام غير مائل إلى دين غيره كاليهودية والنصرانية، بل دين الخليل إبراهيم ﷺ الحنيف المسلم، ولا تشرك - أيها النبي - بالله كمن عبد غيره ودعا سواه فتخسر دنياك وأخراك، وإن كان الخطاب للرسول ﷺ فإنه خطاب لأمته.

﴿١٠٦﴾ ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ولا تدعُ غير الله من الأوثان والأصنام والكهنة والعرافين؛ لأنهم لا يجلبون لك نفعًا ولا يدفعون عنك ضرًّا بل النافع الضار حقيقة هو الله وحده، فلا تدع سواه، فإن أخطأت ودعوت غيره فقد أشركت وحبط عملك، وظلمت نفسك بالشرك وأوردتها المهالك.

﴿١٠٧﴾ ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وإن أصابك الله بضراء وشدة وبلاء فلا يزيلها عنك ولا يعافيك منها إلا الله وحده، وإن أراد لك الخير من رخاء ونعماء وعافية وسراء فلا يمنع وصولها إليك أحدٌ كائنًا من كان، والله يصيب بالسراء والضراء من يشاء من العباد، كل شيء فيه بقضاء وقدر، وهو الغفور لذنوب من تاب، الرحيم بمن أناب، يغفر له الذنب فلا يؤاخذه، ويرحمه بأن يوفقه لما فيه صلاحه.

﴿١٠٨﴾ ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

قل - أيها النبي - للناس: قد جاءكم الرسول بالقرآن والإيمان وعبادة الرحمن، فمن أجاب وأناب فنفع استجابته وثمرة طاعته له، ومن صدَّ وأعرض وكذَّب وأبى فإنما الضرر عليه وحده، وما أنا موكَّل عليكم أُكرهكم على الإيمان، وإنما أنا رسول أبلغكم دعوة الرحمن، وأقيم عليكم الحجة والبرهان.

﴿١٠٩﴾ ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

واتبع - أيها النبي - ما أوحاه الله إليك من الكتاب والسنة، واصبر على أذى من آذاك وعلى إبلاغ رسالة ربك ومولاك، حتى يقضي الله بينك وبين من كذّبك بقضاء الحق فينصرك وأتباعك ويمحق أعداءك، وهو خير من حكم لتمام العدل وعدم الظلم والصواب في الحكم.